

أهمل البيت
قائمة التزجرات

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع.
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.nct.eg

أهل البيت فاطمة الزهراء

للأستاذ

توفيق أبو عاصم

رئيس مجلس إدارة مسجد السيدة نفيسة
ووكيل أول وزارة العدل سابقاً

الطبعة الثامنة



دارالمهارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً
(سورة الأحزاب)

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى
(سورة الشورى)

سيرة الزهراء

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين - وبعد
لقد امتلأت نفسي ارتياحاً حين نبئت من دار المعارف بعزمها على طبع كتاب
« فاطمة الزهراء » طبعة ثانية ، وفي الحقيقة هي الثالثة ، لأنه لما أراد الله
سبحانه وتعالى لي التوفيق وأصدرت كتاب أهل البيت ، وجمعت فيه
شخصيات أهل البيت : فاطمة الزهراء ، وعلي بن أبي طالب ، والحسن بن علي ،
والحسين بن علي ، ثم السيدة نفيسة ، ونقد الكتاب بسرعة وأصدرنا الكتاب
في أجزاء ، وابتدأت بالسيدة فاطمة الزهراء ونقد الكتاب ، وكان من أسباب
نفاذه أن الشباب المعاصر كما قال لي الكثيرون ليس في وسعه الحصول على
كتب مبسطة تنطق بلغة العصر ، وتعرض حياة أهل البيت لأن أكثر أئمة
أهل البيت ما زالت حياتهم مبصرة في كتب السيرة القديمة بترتيب لا ينسبغه
شباب اليوم ، لذلك كان واجباً علي ذوى الإحاطة بسيرة أهل البيت أن
يقوموا بمهمة التأليف بأسلوب عصري عن هذه السيرة الجليلة ، سيرة أهل البيت
الذين طهرهم الله عتلاً ومنطقاً وسلوكاً من كل آثار الجاهلية ، ويقول الله
سبحانه وتعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيراً) . وحين يكون أهل البيت قد احتلوا هذا المقام السامي في

الشرع الإسلامى المقدس ، فقد انطلق الرسول صلى الله عليه وسلم
لنبیان هذه الحقيقة حين قال : « إني خلّفت فيكم ما إن تمسّكنم بهما لن
تضلوا بعدى : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف نخلفوني فيهما » .
ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن السيدة فاطمة : « إن الله ليغضب
لغضب فاطمة ويرضى لرضاها ، فاطمة قلبي وروحي التي بين حنّتي » .
هذه الشهادة وأمثالها تواترت في كتب الحديث والسيرة من رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ولا يتأثر بنسب أو سب ،
ولا تأخذه في الله لومة لائم ، هذه أوصية من خاتم الرسل على صدر
فاطمة الزهراء تزداد تألقاً كلما مر الزمان وكلما تطورت المجتمعات وكلما
لاحظنا المبدأ الأساسى فى الإسلام وفى كلامه لها : « يا فاطمة اعملى لنفسك
فإني لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

وإني أنحنى إجلالاً بين يديك سيدتي - يا بضعة النبي
وظاظة للرأس تجاه مقامك الشامخ يا أم الحسين
أى قلم يرقى ليكتب عنك
وأى ريشة تدق حتى تستطيع أن تصورك كما أنت
قالوا عنك : إنك وتر في غمد
وقالوا : إنك نداء الملايين
وقالوا : إنك شهاب النبوة الثاقب
وقالوا : إنك أنثى فى القمة
أنت يا سيدتى الجليلة بنت النبوة البكر
أنت ربيبة الرحي

أنت أم أبيك
 أنت أم للرسول في رسالته لا في ولادته
 أنت يا سيدتي زعيمة أهل البيت .
 ويقول الشاعر :

هم النور نور الله جل جلاله هم التين والريتون والشفع والوتر
 وأحمد الله سبحانه وتعالى أن من على بحب رسوله الأمين محمد بن عبد الله
 صلى الله عليه وسلم وحب آل بيته الطيبين الطاهرين رضى الله عنهم أجمعين ،
 فهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ومنبع الرحمة ومعدن
 العلم ونباييع الحكمة ، فهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن ، إن نطقوا
 صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا ، ناصرهم ومحهم ينتظر رحمة الله ونفحاته ،
 وعدوهم ومغضهم يستقبل نقمة الله وسطوته ، بهم هدايتنا من الظلمات
 وبهدىهم ننسم مراق العلياء ، وهم موضع سر المصطفى صلى الله عليه وسلم .
 لقد بلغ من حب الرسول صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة أنه كان
 يكتبها : (أم أبيها) ، إنه اليتيم يجعل من الطفل يحن إلى أمه تحو عليه بدل
 أمه ، فقد توفيت (آمنة بنت وهب) أم النبي صلى الله عليه وسلم وهو طفل
 صغير ، فعلق قلبه حينذاك بفاطمة بنت أسد أم علي عليه السلام ، لقد
 كان يناديها : يا أماه .

وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وسمع يقول : « ماتت أمي » .
 ورزق صلى الله عليه وسلم فاطمة ، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد وتسل
 بابنته عنها ، وقد كناها : (أم أبيها) ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم
 بالذي تدفعه العاطفة إلى إضفاء سمات على أشخاص ليسوا جديرين بها

أو مدح أفراد بعبارات تكون أقرب إلى الخيال من الواقع - إنه الرسول الصديق الأمين، وكفى فيه فخراً قوله عز من قائل : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . أحب الزهراء أيما حب وكانت جذيرة بهذا الحب - قال عنها : فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبنى .

وقال أيضاً : فاطمة بضعة مني يؤذيني من آذاها ويسرني ما سرها . وفي رواية أخرى : « إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني من آذاها وينصيني من أنصها » (١) . وحق لها أن تنفرد بهذا اللقب ، فهي بضعة النبي حقاً ، أشبهته خلقاً ومنطقاً - وواكت رسالته مند البدء فوعت من ذلك كثيراً . ثم استمرت تسند الامتداد الطبيعي للرسالة في ظل الإمامة ، تسنده بكل ما أوتيت من حول وطول .

وحق لها أن تكون سيدة نساء العالمين ، والبتول العذراء ، والظاهرة الزكية . ومما لاشك فيه أن السيدة فاطمة الزهراء حاولت أن تشارك أباه ، فتسعى مخلصاً لسد الفراغ العاطفي الذي كان يعيشه الرسول بعد أن فقد أبويه في أول حياته ، وفقد زوجه الكريمة أم المؤمنين السيدة خديجة ، وهذا الفراغ كان يزعج النبي صلى الله عليه وسلم وينعكس على قلبه الرهيف المشتاق إلى الحب ، لقد كان بحاجة إلى عطف الأم ورعايتها في حياته وفي عمله الشاق المضني وفي مواجهته بيثة القاسية بالنسبة إليه ، وقد وجد كل هذا العطف في فاطمة .

إن التاريخ لا يحدثنا إلا تنقاً من هذه المواقف الأمومية التي كانت تصدر عن السيدة فاطمة الزهراء بالنسبة للرسول ، ولكنه يؤكد نجاحها في هذه

المحاولة التي أعادت إلى محمد الاكتفاء العاطفي الذي ساعده في تحمل أعباء الرسالة .

إن التاريخ يؤكد هذا حينما ينقل -تكراراً- عن لسان النبي صلى الله عليه وسلم : « فاطمة أم أبيها » وحينما نرى أنه كان يعاملها معاملة الأم فيقبل يدها ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه إلى المدينة ، ويودعها منطلقاً من عندها إلى كل أسفاره ورحلاته . وكأنه يتزود من هذا النبع الصافي عاطفة لسفره^(١) .

إن فاطمة الزهراء هي أجل من أن تشير إليها الأسانيد، وأكرم من أن تدل عليها السرود ، يكفينا إطاراً كونها ابنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوجة علي وأم الحسن والحسين وصيدة نساء العالمين .

يقول العلامة سليمان كنانى :

إيه فاطمة

يا ثغراً تحلى بالعفاف قطاب رضابه

ويا عنقاً تجمل بالمكرمات فدكا إهابه

لقد علق خط وصلك بينت عمران يا ابنه المصطفى .

فتلك مريم - ما فرشت الأرض إلا من تنف الزنابق وأنت النفحة

الزهراء ما نفشت الطيب إلا من ساهل الكوثر .

والخط خط الطهر والعفاف ما زرت الأرض إلا خفف إرهاقها ولا عائق

الأجيال إلا لون آفاقها .

والأرض لولا هذا الأثير يغمرها - تأجن

والزمن - لولا هذا العير يرشفه - يأسن

يا بتول - يا أم أبيك

لقد كانت النوة طفلك المكر

يا أم ريحانين جسدا أشواق النبوة

يا لبنة القيع

يا كبرياء النفس في عنفوان الجفر . . .

أية دمة ليس لها أن تحرق مقلتيك وأنت فوق ضريح ثوى فيه مخمل

الكف وحنوة القلب ورنوة العين وهلة الجين ودفقة المسم . . . وهالة كالديمة

موصولة العبق بغار حراء ومسحة كالنور فيها كل العزاء .

وذاب حبر الوصية يا أنوق

وبقيت على الخط الكريم يا عديلة مريم

يا قيثارة النوى

يا نورة اللحد

ويا وترأ في غمد

لعل خير ما أسى به هذه المقدمة هذه الكلمات المشرقة على لسان

السيدة الجليلة فاطمة الزهراء - رضى الله عنها :

« فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تزيهاً لكم عن

الكر ، والزكاة تركية للنفس ونماء في الرزق ، والصيام تثبيتاً للإخلاص ،

والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ،

وإمامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزاً للإسلام ودلاً لأهل الكفر والنفاق ،

والصبر معونة على استيعاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مصلحة للعامة ، وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنمأة في العدد ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبحسة ، والى عن الحمر تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة .

وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية . فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنما يخشى الله من عبادة العلماء » .

وأخيراً وليس آخراً

أسأل الله عز وجل أن ينفعنا بمودتها وأن يكتب لنا شفاعته أبيها صلى الله عليه وسلم وشفاعتها وشفاعة ذريتها رضى الله عنهم أجمعين . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت والحمد لله رب العالمين

توفيق أبو علم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ،
النبي الأُمى العربى ، سيدنا ومولانا محمد ، صلى الله عليه وسلم ،
وبعد ، فعندما وفقنى الله سبحانه وتعالى وأصدرت كتابى « أهل البيت »
لم أكن أتوقع أن ينفذ الكتاب بهذه السرعة ، ولقيت من القارئ الكريم
كل تشجيع ، وتلقيت رسائل كثيرة من قراء لا أعرفهم أمطرونى بعبارات
لا أستحقها . وفى مقدمة هذه الرسائل رسالة كريمة من السيد حسين الشافعى
نائب رئيس الجمهورية ، وأخرى من العالم الكبير محمد صادق الصدر ،
رأيت أن أضمنها هذه الطبعة الجديدة من الجزء الأول من سلسلة أهل
البيت .

وكما قلت فى مقدمة الطبعة الأولى ، إن مادة كتاب « أهل البيت »
تاريخية ، أخذت من مصادرها الأولى ، وإنه ليس لى من فضل سوى
أمانة النقل وجهد البحث . وهأنذا أكررها مرة ثانية إحقاقاً للحق .
والفضل فى صدور هذا الكتاب لله سبحانه وتعالى وللمرحوم والذى الذى
فتحت عينى على الدنيا فوجدته يحثنى على محبة أهل البيت .
وكان لابد لى من التفكير فى إعادة طبع الكتاب مرة ثانية ، واستخرت

الله ، وعرضت هذه الفكرة على أخى الكبير الدكتور السيد أبو النجا المشرف العام على دار المعارف ، واتفقا على أن يصدر الكتاب فى إجراء ، مبتدئاً بالسيدة فاطمة ، لأنها أولاً هى فاطمة الزهراء المصدر الأول من مصادر القوة التاريخية التى تابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير ، يكفينا إطاراً كونها كريمة الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، وزوج الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأم الحسن والحسين ، وهى بحق قيامة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد قالوا عن الزهراء بحق إنها نداء الملايين ، وإنها شهاب النبوة ، وإنها أنثى فى القمة . وكل هذا مرآة تعكس جزءاً ضئيلاً مما هى عليه ، أليست بنت النبوة ؟ أليست ربيبة الوحى ؟ نحن جميعاً ننحنى ولنتمسك عن لسان الرسول العظيم ، صلى الله عليه وسلم ، سمة منحها إياها وقلادة قلدها بها . فنراه يناديها « بأم أبيها » إذن فأنت يامسيدتنا الجليلة « أم أبيك » . وهى التى قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة ، إن الله عز وجل يغضب لعضبك ويرضى لرضاك » . فإن الزهراء أجلّ من أن تشير إليها الأسانيد ، وأكرم من أن تدلّ عليها السرود .

وسيرى القارئ الكريم أنى أعدت كتابة هذه السيرة العطرة ، فأضفت كثيراً مما يتفق مع جلال هذه السيرة ، وحتى أستطيع أن أشيع القارئ الكريم بفضل أهل البيت الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

وأهل البيت هم شجرة النبوة ، ومحط الرسالة ، ومنبع الرحمة ،

ومعدن العلم ، ونبايح الحكمة ، وكنوز الرحمن . ناصرهم ومحبيهم ينتظر
رحمة الله ونفحاته ، وعدوهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله وخطوته ، بهم
هدايتنا من الظلماء ، وهم موضع سر المصطفى ، صلى الله عليه وسلم .
وعن الصديق رضى الله عنه أنه قال : « رأيت رسول الله صلى الله
عليه وسلم خيمَ خيمة وهو يتكىء على قوس عربية ، وفي الخيمة على وفاطمة
والحسن والحسين ، فقال : « معشر المسلمين ، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ،
حرب لمن حاربهم ، ولئى لمن والاهم ، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد ،
ولا يبغضهم إلا شق الجد ردىء الولادة » .

ثم أتبع هذا الجزء ، إن شاء الله ، بأجزاء مستقلة عن الإمام على
رضى الله عنه ، ثم الإمام الحسن ، ثم الإمام الحسين ، ثم بعد ذلك
السيدة نفيسة ، رضى الله عنهم ، ثم أزيد على الطبعة الأولى جزءاً
خاصاً لكل من السيدة زينب رضى الله عنها - وذلك استجابة لما طلبه منى
القراء الكرام - ثم سيدى على زين العابدين نجل أبى الشهداء الإمام
الحسين رضى الله عنه .

والله أسأل أن يوفقنى حتى أتمكن من إخراج هذا الكتاب المبارك
على أجزاء مستقلة فى مواعيدها ، كما أسأله سبحانه وتعالى بجاه نبيه
المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، أن ينفعنا ببركة سادتنا أهل البيت ،
وأن يجعلنا من محبيهم ، فتكون محبتنا صلة ود صميم يخدمهم العظيم ،
ووسيلة لشفاعته العظمى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

نسأل الله سبحانه وتعالى الهداية والتوفيق ، وما توفيقى إلا بالله العلى
القدير .

توفيق أبو علم

١ من رجب ١٣٩٢

١٠ من أغسطس ١٩٧٢

أهل البيت

رسالة من العالم الكبير محمد صادق نصير

سيادة الأستاذ توفيق أبو علم ، أعزه الله ورعاه .
السلام عليكم ، وعلى من ضمه مجلسكم العامر المشرف بالانتساب
للسيدة « النفيسة » الجليلة ، ورحمة الله وبركاته .
يسرني - وأنا مليل « العترة الطاهرة » - أن أقرأك في كتابك القيم
« أهل البيت » ، وكلّ غبطة بما وهبك الله من فضله ، وهداك إلى مسيله .
وأشهد أنك من أولئك الناس الطيبين الذين عناهم الإمام زين العابدين
في قوله حيث يصف « الأهل » سلام الله عليهم فيقول : « علمهم
علم ما كان وعلم مائق ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » ، فهويت -
رعاك الله - إليهم بفؤادك ، وبذلت في الدفاع عنهم قصارى جهدك
في كتابك . وقد برهنت في كل ماحررت على أنك المصدق لقول الرسول ،
صلى الله عليه وآله : « سعيد الجد طيب المولد » ، فلك البشرى بهذه
السعادة ، ولك الفوز بطيب الولادة ، ووفقك الله لأن تكون في البقية
الناقية من حياتك المديدة النافعة إن شاء الله مسلماً لمن سالم أهل البيت ،
وحرماً لمن حاربهم . وليهنك هذا القرب إليهم بالتوفيق لخدمتهم ، وذلك
بالانتساب إلى حرم السيدة الجليلة الطاهرة والنفيسة ، رضوان الله عليها ،
وسلامه على أجدادها الطيبين المعصومين .

ورجائي ألا تنساني من صالح أدعيتك في مشهدها المكرم - وهو من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .

وكم وجدت السعادة النفسية في هذه السياحة الفكرية الممتعة التي قضيتها في أثرك الباق « أهل البيت » .

وإني إذ أقرؤك في فصوله وأبوابه فأعما أقرأ آيات المودة والولاء لدوى القربي الدين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم من الدنس ، وجمعهم أئمة حكماء يهتدى بهم ، ويستضاء بأنوارهم إذا ادلهم الأمر ، وطوى الضلال في الناس .

وليس من الغريب أن يكونوا بهذه المنزلة الرفيعة التي رفعهم الله إليها وهم جزء لا يتجزأ من رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، علمهم من علمه ، وأدبهم بأدبه ، وأطلعهم على وحى الله وشريعته وأسراره .

ويكفيها للدلالة على عظمتهم ، عليهم السلام ، أن حياتهم الشريفة ، التي ابتدأت بأمر المؤمنين « على » وختمت « بالمهدي » كانت جميعها امتداداً واستمراراً للحياة جدهم الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

وحياتهم المثلى كانت كلها وفقاً على الشريعة والأمة والمصلحة العامة ، فما أبقوا آية في كتاب الله المرل إلا أوضحوها ، ولا حكماً من أحكام الله إلا بينوه على وجهه الأكمل .

وكان النبي الكريم يعرف أمته منزلة أخيه « على » فيقول : « وأنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد العلم فليأتها من بابها » (١) .

ويقول : « أعلم أمتي من بعدى على بن أبي طالب »^(١).
وعن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وآله قال : « يا على ، أنت تبنى
لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدى »^(٢).

وكان يقول صلى الله عليه وسلم : « قسمت الحكمة عشرة أجزاء
فأعطى على تسعة أجزاء والس جزء واحد . وعلى أعلم بالجزء الواحد منهم »^(٣)
وإنا لنراه عليه السلام ، مع قصر مدة خلافته ، ومع المشكلات
التي واجهته في عهده ، قد ترك من بعده « نهج البلاغة » الذي هو
أعظم دستور للأمة الإسلامية . يرشدها للطريق المستقيم في خطه البليغة ،
وآرائه الصائبة ، وكلماته القصار الحكيمة .

وقد أتى من أحكامه في القضاء ما كان مصدراً يرجع إليه المجتهدون
عند إصدار أحكامهم منذ صدر الإسلام إلى عصرنا الحاضر .

ونرى الإمام الحفيد علياً زين العابدين ، وهو في أشد محنته ، وفي
أيام بني أمية الظالمة لأبيه وجده ، لا يفس على الأمة بالنصح ، فيرشدها
إلى الخير ، وإلى كل عمل صالح في « صحيفته السجادية » الشهيرة ،
يوجه في « زبور آل محمد » إرشاداته للناس عن طريق المناجاة والدعاء
إلى الله ، وفي أدعيته البليغة من المعاني ما يحير العقول والألأباب . وقد
أوضحت في بحث « جهاد الإمام الصامت » الأهداف التي تضمنتها هذه
« الصحيفة السجادية » الخالدة .

(١) ص ٣٣ من منتخب الكر

(٢) ص ٣٣ من منتخب الكر

(٣) ص ٣٣ من منتخب الكر

وجدير بالمسلم المؤمن ألا يخلو داره - بعد القرآن الكريم - من « نهج البلاغة » ، ومن « الصحيفة السجادية » .

والنهج والصحيفة بعد القرآن والسنة - توأمان ، وهما دون كلام الخالق والى وفوق كلام المخلوقين .

ونرى الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام ، لما ساعدته ظروفه ، قد فتح بابه للناس ، فكانت داره في عصره الزاهر أعظم مدرسة للأمة ، حرّجت الأعلام في الفقه والتفسير والحديث وسائر العلوم الإسلامية . وقد كثرت الرواة عنه من مختلف المذاهب الإسلامية ، فكان أربعة آلاف رجل يقولون : حدثني جعفر بن محمد .

وقد جمع من رواياته التي أخذت عنه بدون واسطة أربعمئة كتاب ، تعرف عند الإمامية « بأصول الأربعمئة » .

ولكن القس المحجاء في تلك العصور لعبت دورها في تلك الأخبار ، ولولا لطف البارئ عز اسمه بالأمة الإسلامية لامحّت تلك الآثار النبوية ، ولكن الله تعالى قد هبّ أعلاماً من حملة علوم أهل البيت نذروا أنفسهم لخدمة أئمتهم ، فوفقوا أعلامهم وأفكارهم وأوقاتهم لجمع أحاديث « العترة الطاهرة » بكتب كانت - ولا تزال - المصدر الفيض لكل مجتهد يرجع إليها عند استنباط الأحكام الشرعية .

وهذه الكتب هي الكتب الأربعة : « الكافي » ، و« من لا يحضره الفقيه » ، و« التهذيب » ، و« الاستبصار » - وهي خلاصة ما أمكن تحصيله من « أصول الأربعمئة » ، وهي للمحمدين الثلاثة الأوائل ، محمد بن يعقوب الكليني صاحب الكافي المتوفى في شهر شعبان ، سنة ٣٢٩ هـ ،

وهي السنة التي توفي فيها أبو الحسن علي بن محمد السمرى آخر السفراء الأربعة وقد اشتمل الكافي على ١٦١٩٩ حديثاً .

ومحمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابو القمي المتوفى سنة ٣٨١ هـ ، وقد أدرك من غيبة الإمام المهدي الصغرى نيفاً وعشرين سنة ، وهو صاحب « من لا يحضره الفقيه » . وقد اشتمل على ٣٩١٣ حديثاً مسنداً ، و ١٠٥٠ حديثاً مراسلاً .

ومحمد بن الحسن بن علي المطوسى شيخ الطائفة في عصره ، وهو صاحب « التهذيب والاستبصار » المتوفى سنة ٣٦٠ في شهر المحرم الحرام . وقد اشتمل الاستبصار على ٥٠١١ حديثاً .

وقد قام بعد « المحدثين » الأوائل المحدثون الثلاثة الأواخر ، وهم محمد بن الحسن الحر العاملى صاحب « وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة » ، ومحمد الباقر المجلسى صاحب « بحار الأنوار » ، ومحمد بن مرتضى المشهور بمحسن الفيضى صاحب « الواقى » .

وقد استدرك المرزا حسين الورى على الوسائل بكتابه الجليل « مستدرك الوسائل » ، فدكر فيه كل ما أغفله الشيخ الحر مما لم يعثر عليه في الكتب المعتمدة ، أو عثر عليه ولم ينقل عنه ، لعدم معرفته بجامعه ، وهو من خيرة الكتب المؤلفة في هذا الفن .

وقد قام سيدنا العلم المرحوم السيد حسن الصدر ، المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ فشرح « الوسائل » شرحاً وافياً أبان فيه فقه الحديث وسنده ودلالته ورجاله بما لم يسبق إليه سابق . . .

واختلاف الرأى لا يفسد في الودّ قضية ، وشأنها في ذلك شأن المذاهب

الأربعة نفسها . فإن بعض المذاهب قد يرى في المسألة الفقهية رأياً ، ويرى المذهب الآخر رأياً يخالف رأيه ، وهذا طريق المجتهدين الذين يتوصلون إلى الحكم بحسب المسند الذى يكون مدركاً لهم حين الاستنباط . والواقع أن الحالة اليوم قد اختلفت كل الاختلاف عن السابق ، فقد حصل كثير من التقارب والتفاهم ، لسهولة المواصلات ، وكثرة الريارات ، ووفرة الكتب والمصادر والمراجع ، وتفهم كثير من أهل العلم والقلم ضرورة التعارف والتكاتف ولتآلف في كثير من البلاد العربية ، فصدرت عشرات المؤلفات التى تحمل هذه الروح الإسلامية الطيبة .

ولا يموتنا أن نذكر بالفخر والشكر موقف « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية » فإنها حجر الأساس للسير في هذا الصراط المستقيم . رحم الله رجاله الماضين ، وبارك الله في رجالها الباقين ، وسدد خطواتهم لما فيه خير الأمة وصلاحها .

• • •

في القرآن الكريم والسنة النبوية المقدسة آيات بينات ، وأحاديث شريفة تدل كل الدلالة على منزلة أهل البيت في نظر الله تعالى ، وبظر الرسول العظيم الذى يرى لهم كل مقام كريم .

وقد حالفك التوفيق في كل ما أوردته دليلاً على هذه الفضائل في كتابك القيم بما تضمنه من الشواهد والأدلة التى تقع المنصف وترشد كل من أراد الحق .

ولقد نسب لعبد الله بن عباس رأيان في تفسير « آية المودة » : رأى نقله عنه عكرمة أن المقصود من الآية : أن تودوني في قرابتي منكم ، أى

تراعوا ما بينى وبينكم ، فتصدقونى لقربة الرحم ، كأنه قال : اتبعونى
للقربة إن لم تتبعونى للنوبة .
وفى هذا المعنى يراد صرف الآية عن هدفها الأسمى من التوصية
بقرباه وذويه .

والمعنى الثانى الذى نقل عن حبر الأمة فى تفسيره (ومن يقترب حسنة)
أنه قال : الود لآل محمد ، وهو الذى اتفقت كلمة « أهل البيت »
وعليه أجمع المفسرون كافة .

والوجه التى أفادها المحقق الفخر الرازى وذكرتموها فى خاتمة البحث
عن آية المودة كانت من خير الكلام وأجوده .

وكنت أود أن تعلقوا على الوجه الأول الذى نقله عكرمة ، فتوضحوا
بأنه وجه لا صمحة له ، لأنه رأى يتنافى مع سيرة عبدالله بن عباس المعروفة
بالمودة والولاء لعلى وأهل بيته .

على أن عكرمة أمره معروف ، وانحرافه عن « أهل البيت » معلوم ،
بالإضافة إلى كذب عكرمة على ابن عباس مما هو مستفيض ومشهور .
وقد عرضت لكذب عكرمة على سبيل التخصيل فى كتابنا « الإجماع »
فى التشريع الإسلامى ، فالأمل الرجوع إليه .

وكم كنت أتمنى أن ترجعوا إلى « الكلمة الغراء » فى تفضيل الزهراء ،
فتقرءوا الفصل الثالث الخاص بآية المودة ، لتطلعوا على كلام سيدنا
الخال المحرم السيد عبد الحسين شرف الدين فى رد هؤلاء المنحرفين
الذين أرادوا تحريف الكلم عن مواضعه ، ليصرفوا الآية عن أهلها حسداً
منهم وحقاً ، وقد شاء الإمام الشافعى أن يسجل ولاءه لذوى المودة ،

فأعرب عن ذلك بهذه العاطفة الشعرية المشكورة فقال رضوان الله عليه :
يا أهل بيت رسول الله حبيكم وضيء من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظم القدر أنكم من لم يصل عليكم لاصلاة له
فأشار في البيت الأول إلى آية المودة التي فرضت على المسلم هذا
الحب ، وأشار في البيت الثاني إلى وجوب الصلاة على الآل بعد الصلاة
على جدهم الرسول الأعظم في تشهد المسلم عند كل صلاة ، فإن من
يقتصر في الصلاة على النبي بطلت صلاته بإجماع المسلمين ، لذلك نراه
صلى الله عليه وآله ينهى الذاكر له أن يقتصر على الصلاة الخاصة به
صلى الله عليه وسلم بمفردها ، ويعلمها بتراء إذا لم تقترن بآله فيقول :
« لاتصلوا على الصلاة البتراء » . والأحاديث في كيفية الصلاة عليه
وعلى آله كثيرة ومشهورة ، فلا حاجة إلى ذكرها ، وهي لا تخفى على الباحث
المتبع .

ولا شك أن حثه على اقتران الآل به يشمل المخاطب ، إذ أمر
بذكره صلى الله عليه وسلم سواء كان في التخطيب أو في الكتابة ، ولكن
نرى المؤلفين من إخواننا ، رعاهم الله ، يقرنون الآل بجدهم في خطبة
الكتاب فقط ، ويصلون الصلاة البتراء على الآل كلما مر ذكرهم في
سائر مواضع الكتاب . ولم أر من قرنهم بجدهم في الصلوات كلها سوى
محمد بن علي الشوكاني رحمه الله ، فقد سارطبق منهج النبي صلى
الله عليه وسلم الذي سنه لأمته في الصلوات في سائر مؤلفاته وكتبه .

ومن يبارى هذا « البيت » العظمى فقاطمة سيدة النساء بنص أبيها ،
وهي نفس النبي بنص آية المباهلة ، والحسنان ربحاننا النبي ، وهما

إمامان قاما أو قعدا ، وهم سلام الله عليهم وبقية الأنمة -- كما قلنا -- كانوا في حياتهم استمراراً لحياة جدهم . يعلمون تأويل القرآن ، ويبيّنون السنة ، ويعلمون الناس أحكام الإسلام ، ويفهمون كل سر من أسرار الشريعة الغراء ، فهم إذن نفس النبي وشركاؤه في القيام بالأعباء ، فليس من الغريب إذن أن يصلى عليهم المصلون كلما صلوا أو ابتهلوا إلى الله بالدعاء .

وليس من الغريب من رسول الله . وهو المطيع لأوامر الله ونواهيه ، أن يسير على الدرب الذي سبه الله ، فيقرن الرسول اسم عترته باسمه ، ويطلب ذكرهم معه كلما ذكره الذاكرون من أمته .

ويشير أيضاً صلى الله عليه وسلم بذكر اسمهم معه إلى أهم أولياء عهده ، والقائمون من بعده ، كما هو الشأن بذكر أسماء أولياء العهد بعد أسماء الملوك كلما دعت إلى ذلك مناسبة .

وقسماً بالله العظيم لو كان لغيرهم هذا المقام لأخّر الرسول أرحامه وقدمهم ، ولكنه مقام كريم أراد الله لهم ، لأنهم سلام الله عليهم كما قال القائل :

من معشر حبهم ديناً وبغضهم
إن عدّ أهل النقي كانوا أئمتهم
كفر وقربهم مجبى ومعتصم
أو قبل من خير أهل الأرض قبلهم

• • •

ولعل أقوى دليل يدل على عظمة « أهل البيت » عند الله والرسول آية الماهلة التي تقول : (فَصَرَّ حَاجَتَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) ، فإنه صلى الله عليه وآله لم يدع للمباهلة

من النساء سوى بضعته الزهراء ، ومن الأبناء سوى ريحانيه الحسين ، ومن الأنفس إلا أخاه علياً الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى ، كما عبر عنه في حديث مستفيض متواتر عند المسلمين كافة .

فهؤلاء الصفوة الذين أرادهم الله للمباهلة ، وهؤلاء الدين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم يدع أحداً من الأنبياء ، ولا النساء ، ولا الرجال من آل هاشم ، أو من غيرهم من المسلمين الذين كان لهم المنزلة والفضل ، والمكانة عند الناس .

وَأنت ترى النبي صلى الله عليه وآله قد تقدم إلى الصاري ريحانيه الباقرين الحسن والحسين ، غير مقتصر على أحدهما ، لأن لكل منهما منزلته ، فلا يمثل أحدهما الآخر ، وإنما هما نظيران ، فدعوة أحدهما ترجيح بدون مرجح ، لذلك دعاهما معاً مثلاً بهما الأبناء ، ولو كان لهما نظير لدعاه كما أدعاهما .

ولما لم يكن في النساء من يقاس بضعته « الزهراء » ترى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يستعني بوجودها عن وجود غيرها ، فكأنه إذ دعاهما دعا النساء جمعاء ، لأنها أم الأئمة ، وسيدة نساء هذه الأمة .

أما « علي » فقد دعاه الرسول صلى الله عليه وآله ليمثل نفس النبي ، لأنه وصيه ، وخليفته ، وولي عهده ، فهو باستطاعته أن يمثله ، ويقوم مقامه ، لذلك كان عليّ بصر القرآن نفس النبي ، وكان النبي نفس الوصي ، ليس في ذلك شك لأحد من الناس .

ولو وجد نظير في المسلمين للإمام لضمه إليه ، ودعاه معه كما صنع في الحسن والحسين ، فلاقتصار عليه أقوى دليل على أنه ليس في أمة

النبي من يكون نفسه غير عليّ ، وقد فصلك ذلك في فصل « نفس » من كتابنا « حياة أمير المؤمنين » .

وقد فهم الإمام من هذه الآية عظيم منزلته . فاحتج بها على أحقيته بالخلافة . قال الدارقطني : « إن علياً يوم الشورى احتج على أهلها فقال لهم : أنشدكم الله ! هل فيكم أحد أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرحم مني ، ومن جعله صلى الله عليه وسلم نفسه ، وأبناءه أبناءه ، ونساءه نساءه غيري ؟ . . قالوا : اللهم لا » (١) .

وأنت ترى أنهم اعترفوا له بأن الله جعل نفس النبي نفس الوصي في آية الماهلة ، كما أنهم أقرروا على فهمه منها أحقيته بالخلافة ، ولو كان لهم شك في ذلك لصارحوه وناقشوه الحساب ، لأن المقام مقام مناظرة ومفاخرة ، امتعرض فيه الإمام كل ما له من ميزات تؤهله لمصب الإمامة .

ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب - قبل وفاته - قد وضع ثلاثة شروط لمن يلي بعده أمور المسلمين :

١ - أن يبايع على أن يعمل بكتاب الله .

٢ - وأن يعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ - وأن يعمل بسنة الشيخين .

وكان أول ما عرضت هذه الشروط على الإمام ، فقال لهم : أبايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل برأى .

ولما امتنع الإمام أن يعمل بالشروط الثالث ، عرض الأمر على عثمان فقبل الشروط أجمعها ، فتم له الأمر ، وبايعه الناس كما هو معلوم .

أما امتناع الإمام فواضح ، لأنه - عليه السلام - كان يرى أنه إمام بنص النبي ، وبوحى من الله تعالى أنزله على النبي يوم غدیر خم ، كما شاع قد وداع ، وطبق الأسماع .

والإمام يعلم أحكام الشريعة وأسرارها بتعليم من النبي الذي علمه من علم الله تعالى ، فطريقه إلى الأحكام القرآن والسنة ، وهما قطعان بالنسبة إلى الإمام ، فلا يحتاج إذن إلى غير طريقهما ، وإلى أى فرد من الناس في فهم منطوقهما .

هذا إذا نظرنا إليه كامام ، وكذلك الأمر معه إذا نظرنا إليه كمجتهد مطلق ، لأن المجتهد يجب عليه أن يعمل بما توصل إليه رأيه ، ولا يجوز له أن يقلد مجتهداً آخر ، مهما كانت مرتبته ، في أى حكم وصل إليه رأيه ، وإذا قلد المجتهد غيره خرج من الاجتهاد إلى التقليد ، وهو محرم عليه ، نعم ، يجوز للمجتهد أن يعمل بالاحتياط فقط ، وإن كان له رأى خاص ، وهذا لا يجعله مقلداً للغير .

ونحن إذا رجعنا إلى عهود من قبله عليه السلام - وجدناهم يرجعون إليه سلام الله عليه في كثير من المسائل ، ولا سيما عهد « الثاني » منهم ، فكم مرة قال عمر - وهو خليفة على المسلمين - « لولا على لهلك عمر » ، « ولا أبقأى الله لمعضنة ليس لها أبو الحسن على » .

ومن كانت هذه منزلته فكيف يرجع إلى غيره ، أو يعمل برأى سواه ؟ ويرى البعض أن الإمام كان عليه أن يرضى بالشروط ثم يعمل برأيه كيفما شاء ، وهذا نظر قاصر ، لأن المؤمنين عند شروطهم ، فلا يجوز أن يقل الشرط ثم يعمل على خلافه ، على أن رضاه بالشرط الثالث

اعتراف منه بصحة آراء من سبقه ، مع العلم بأنه يخالفهم في كثير من الآراء والأحكام ، كما هو واضح لمن وقف على المسائل الشرعية في الفقه الإسلامي .

ونستطيع من هذا الإحجام أن نعرف عظمة الإمام في الورع والتقوى ، والبعد عن الدنيا ، فإن حرف « لا » منه عليه السلام في نفي الشرط الثالث قد أبعد عنه الدنيا ، وفضل أن يبقى كقرد من المسلمين ماداموا قد اشترطوا عليه شرطاً لا يتفق مع الاستقلال بالرأى الذي هو سلاح المجتهد ، وحجر الأساس للاجتهاد .

ولم يكن ابتداءهم بعرض الشروط على الإمام رغبة بمبايعته ، عليه السلام ، بل لأنهم قد علموا سلفاً رفضه عند وضعهم الشرط الثالث الذي يتنافى مع مقامه ومنزلته ، ولا يتفق مع تصريحه المستمر بإمامته .

فإقدامهم يوم الشورى على عرض الشروط ، مع هذا العلم ، كان إذن لإفهام الناس أنهم أرادوا مبايعة الإمام ، ولكنه - سلام الله عليه - هو الذي أصر على الإحجام .

ولو أنهم كانوا وراء الواقع لاكتفوا بآية المباهلة التي عدته نفس النبي بدون أن يضعوا قيداً يدعو الإمام إلى الرفض ، ويصدّه عن القبول .

ولو أنهم تمسكوا في اليوم الأول بعروته ، وبقوا على عهده وإمامته التي نصّ عليها النبي « يوم الغدير » ، لسار بهم على الطريق المستقيم ، ولأوردتهم - كما قالت « الزهراء » سيدة النساء - « منهلًا نقيراً صافياً » ، رويًا ، فصفافاً ، تطفح صفاته ، ولا يترنق جانباه ، ولأصدرهم بطاناً ، ونصح لهم

سراً وإعلاناً ، ولكات الأمة الإسلامية على مذهب واحد ، كما هي في دين واحد .

هدانا الله جميعاً لما فيه الخير والصلاح ، ووفقنا لأن نسير على هدى الأئمة الطاهرين ، مقتفين أثرهم ، مستضيئين بأنوارهم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بغداد - الكاطبية ١ / ٥ / ١٩٧١

محمد صادق الصدر

السيدة فاطمة الزهراء

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « يا فاطمة إن الله عز وجل
يعصب لعصبك ، ويرضى لرضاك »
(حديث شريف)

كرامة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصغر بناته ، وأحبهن إليه .
وقد انقطع نسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلا من فاطمة ، وبذلك
يكون الله قد آثرها بالنعمة الكبرى ، فحصر في ولدها ذرية الرسول وحفظ
بها أشرف سلالة عرفتها العرب منذ كانت . فهي وحدها الوعاء الطاهر
للسلالة الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من آل البيت ، بل هي
أظهر أم عرفتها الأجيال .

وأما السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، وهي قرشية أباً وأماً ، فأبوها
خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن
غالب بن فهر . وأما فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن
عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر . وأم فاطمة هالة بنت
عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقر بن عمرو بن معيص بن عامر بن
لؤي بن غالب بن فهر .

وبذلك تكون السيدة أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - قد

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة ، فكانت قافلها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام ، وأهم من هذا جميعاً بالنسبة إلى زوجة نبي ، وإلى حدة الأئمة من بيت النبوة ، أنها كانت مفضورة على التدين وراثته وتربية ، فأبوها خويلد هو الذي نارع « تبعاً » الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود (الحجر الأسود) معه إلى اليمن ، فتصدى له ، ولم يهرب بأسه غيراً على هذا المنسك من مناسك دينه .

وابن عم السيدة خديجة ، هو ورقة بن نوفل ، وكان يعكف على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة يستفح بها أصحابها ، إذ لم يكن في مكة مسيحيون يرجعون في أمرهم إلى كاهن أو كنيسه ، وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك في عبادة الأصنام وتحنج به إلى البحث عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة .

وكان ورقة يعيب على أهل مكة عبادتهم الأصنام ، ويلتزم في عبادته دين إبراهيم عليه السلام ، فاجتنب الخمر والميسر ، وكان يرحم المؤودة التي يفكر أبوها في قتلها ، ويفتديها بماله ، ويربها عنده ، حتى إذا كبرت ورعب أبوها في استعادتها ردها إليه . ويقول ورقة بن نوفل في ذلك كما جاء في كتاب « الروض الأنف » :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغركم أحد

لا تعبدن إلهاً غير خالقكم
 سبحان ذى العرش سبحاناً يدوم له
 مسخر كل ما تحت السماء له
 لا شئ مما ترى تبقى بشاشته
 لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه
 ولا سليمان إذ تجرى الرياح له
 أين الملوك التى كانت لعزتها
 حوض هنالك مورود بلا كذب
 فإن دعوكم فقولوا بيننا حدداً (١)
 وقبلنا سبح الجودى والحمد
 لا ينسى أن يناوى ملكه أحد
 يبقى الإله ويودى الأهل والولد
 والخلد قد حاولت عادفما خلدوا
 والجن والإنس فيما بينها مرد
 من كل أوب إليها واهد يقد
 لا بد من ورده يوماً كما وردوا

وظالما استشارته السيدة خديجة فى كثير من أعمالها ، وما يعنى لها ، فكانت
 تجد عنده الرأى السديد والتنو المصيب - ورأت أن تبادر بالذهاب إليه مع
 زوجها عليه السلام ، لتستطلع منه جلية ما حدث له قاتلاً : « إنك ستكون
 نبياً عظيماً ، وسيظهر دينك ويعم أرجاء العالم ، ولكنك الآن ستقابل بعظمة من
 الناس ، لأنك ستحولهم عن دينهم إلى دين آخر ، وهذا من أشق الأعمال ،
 وسيخرجونك من بلدك ، ولكن الله سينصرك » - ثم قال له ورقة بن نوفل :
 « ليتنى أكون حياً ليدركنى يومك فأبصرك نصراً مؤزراً » ونُسب إليه شعر كان
 يقول ، الجاهلية يشه شعر أمية بن أبى الصلت .

وقد هز هذا البيت أحاسيس ورقة بن نوفل فقال :

لجحت وكنت فى الذكرى لجو
 لهم طالما بعث النشيجا
 ووصف من خديجة بعد وصف
 فقد ضل انتظاري يا خديجا
 بما حبرتنا عن قول قس
 من الرهبان أكره أن يحجا

فإن محمداً سبّود فينا ويظهر في البلاد ضياء نور
 فيلقى من يحاربه خساراً فياليتني إذا ما كان ذاكم
 ولو جأ في الذي كرهت قريش فإن يبقوا وأبق تكن أمور
 وإن أهلك فكل فتى سيلقى من الأقدار متلفة خروجا

ويروى في كتب السيرة أن السيدة خديجة استغربت باسم جبريل حين ذكرته له ، فقال لها : إنه السفير بين الله وأنبيائه ، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .

ومن حديث ورقة بن نوفل يتبين لنا وجود حب دراسة الأديان بين بني عم السيدة خديجة الأقربين ، وكذلك افراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن ، والمخاطرة بنفسه غيرته منه على مناسك الكعبة ، وهذا كاف للإبانة عن طبيعة التدين التي ورثتها الأسرة من كان منهم في الجاهلية ومن تحول عنها إلى الصراية .

وكانت السيدة خديجة تسمى في الجاهلية بالطاهرة ، وسيدة نساء قريش . وقد تزوجت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة ، وعتيق بن عابد المخزومي . وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الإسلام . أي أن الرجل يخطب إلى الرجل بنته ، أو من له عليها ولانة . ريقدم صداقها فيزوجه .

وقد ولدت السيدة أم المؤمنين ولداً من أبي هالة وسمته « هنداً » على عادة

العرب ، إذ كانوا يلقبون الذكور أحياناً بأسماء الإناث ، فهند هذا هو ربيب النبي صلى الله عليه وسلم ، أخو السيدة الزهراء لأُمها ، عليهما السلام . وقد عاش وأدرك الإسلام وأسلم . روى عنه ابن أخته الحسن بن عليّ حديث وصف النبي صلى الله عليه وسلم المشهور في الشرائع ، وكان « هند » وصافاً مجيداً ذا قدرة لم يوتها أحد غيره على الوصف والتحدث عن الإسلام وفضائله ، وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول : « أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً ، أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخي القاسم ، وأختي فاطمة ، وأمي خديجة رضي الله عنهم » وقد شهد « هند » غزوة بدر ، وقتل وهو يقاتل في صف إمامنا عليّ في معركة الجمل . وقد تعمّدت أن أعرف القارئ بابن السيدة أم المؤمنين « هند » ، لأنني أرى ألا ندع شيئاً يتعلق بسيرة السيدة الجليلة مهملاً ، ولا سيما أن الذين كتبوا في هذه السيرة العطرة لم يتعرضوا للذكر « هند » ، فكاد يضيع ، وعذرهم في ذلك أنهم إنما يتعرضون لسيرة هذه السيدة الكريمة على العالم منذ تشرفها بزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعذرهم أيضاً أنه من ذا الذي يعلم أن هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه فاطمة الزهراء أم الحسين ، ثم يرجع باحث عن ابنها ذاك من زوجها الأول أبي هالة ؟ كما رزقت السيدة خديجة من زوجها الثاني « عتيق بن عابد المخزومي » بتاً اسمها « هند » أيضاً ، وقد أسلمت ، وكانت صحابية مشهورة ، وقد أعرضت السيدة أم المؤمنين عن الزواج بعد وفاة زوجها مع كثرة المتقدمين لها من أشرف قريش ، حتى سعدت آخر الأمر وأسعدت بزواجها من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت هي أولى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم . وعشرته خمسة عشر عاماً قبل

السيرة وعشر سنين بعدها .

واتصل سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام بالعمل في تجارتها بمشورة من عمه أبي طالب ، وقد قال له : « يابن أخي أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد علينا الزمان ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تحارة ، وهذه غير قومك قد حصر خروجهما إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في غيرها ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك » . وذهب أبو طالب إلى السيدة خديجة رضي الله عنها ، وقال لها هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً ؟ فأجابته على رضي وكرامة وقالت له : لو سألت ذلك لبعيد بغض لأجباك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟

وقد سافر النبي إلى الشام ، وربحت تجارتها ، فأكرمت من لبي مروهته وأمانته وحلقة ، وأحبته ، وودت لو يحطها مع الخطاب فتدتهفت الخطاب عليها ، وقد أحجم النبي حياة ، وأحجمت هي عن التصريح . وكانت لها صديقة اسمها نفيسة - وهي أخت يعلى بن أمية - فأوعزت لها أن تشجعه على التقدم لها ، ولم يكن صعباً على السيدة نفيسة أن تؤدي هذه الأمانة ، لأنها متكلم كأنها صاحبة رأى تشير به حتى إذا وجدت مجالا كانت وكيلة في إبداء القول ، ولم تكن النساء في ذلك الوقت ممنوعات من الحديث مع الرجال ، فلم تكن رسولة خديجة محتاجة إلا إلى شيء من قوة الجنان أمام ذلك المهييب العظيم .

وتحدث السيدة نفيسة في ذلك كما رواه ابن سعد بإساده فتقول : كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة حدة

شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نساً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كانوا حرصاء على نكاحها لو قدروا على ذلك . قد طلبوها وبدلوا لها الأموال . وتقول السيدة نفيسة :

« استدعني خديجة إليها عقب وصول قافلتي التي كان مجملد الأمين يشرف عليها ويقودها ، فقالت : « لقد احترت لك لأمرهم ثقة بك » ، قلت : أنا أضوع لك ياسيدي من بياضك . قالت : انطلقى إلى محمد وذكريني له .

فذهبت نفيسة إلى ابن عبد الله فقالت له : ما يمنعك أن تتزوج وعتد لها بقلة المال اللازم للقيام بشئون العائلة ، قلت : فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاة ؟ قال لها : ومن ؟ قالت له : خديجة ، فقال : خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة ، هي الموافقة ، هي الصالحة ، اذهبي يا نفيسة وبني سأخطبها » .

وروى الزهري صاحب أقدم السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة : هلم فلتحدث عند خديجة . وكانت تكرمهما وتحتلهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستثثة - أي كاهنة - فقالت له : جئت خاطباً يا محمد ؟ فقال : كلا ، فقالت : ولم ؟ والله ما في قريش امرأة وإن كنت خديجة إلا تراك كفتاً لها . . . ولم يمض وقت طويل حتى أتى محمد خاطباً ، ومعه عمه حمزة ، فقال وهو يفتاح عندهما عمرو بن سعد بن عبد العزى : ابن محمد ممن لا يوارن به فتى من قريش إلا رجع به شرفاً وبلاً وفضلاً وعقلاً وديناً كان في المال قلاً فإما المال ظل زائل ، وعافية مسترجعة ، وله في خديجة

بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » . فقال عمرو : « هو الفحل الذي لا يُقَدَّعُ أنفه » ، وهو مثل عربي يقال للكفء لا يرد إن خطب .

وفي رواية : أن الذي خطب هو أبو طالب فقال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وأصل معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حفصة بيته ، وشوكة حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح ، وإن كان في المال قُلّاً فالmaal ظل رائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة ، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وله فيها رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أُحْسِنَ من الصداق فعلى ، وهو - والله - بعد هذا له نأ عظيم ، وخطر حليل جسيم » .

وما إن أتم أبو طالب خطبته حتى تكلم ورقة بن نوفل ، فقال : الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فحسن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لاتنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فحركم وشرفكم ، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا على معاشر قريش بأنني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار » .

ثم سكث ورقة ، وتكلم أبو طالب وقال : « قد أحببت أن يشركك عمها » ، فقال عمها : « اشهدوا علىّ بامعشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد » ، وشهد على ذلك أشرف قريش .

وقد اختلفت الروايات في سن أم المؤمنين عند زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول ابن عباس : إنها كانت في الثامنة والعشرين

وهذا الرأي أقرب إلى الصحة ، ويؤيده المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فيقول : « وأخر هذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ، ويبكر فيها الكبر ، لا تنصدي للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد . وقد يرجع تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجملها ومالها وعراقة بيتها وطمأنية أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وإن كما لانعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجهما من ألى هالة ومن عتيق ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو أن أيامها معهما لم ترد على بضعة أعوام » .

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين السيدة خديجة كل أولاده من البنين الطاهرين والبنات الصاهرات إلا إبراهيم فإنه كان من السيدة مارية . ويصف الرسول السيدة خديجة بقوله : « والله ما أبدلى الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقني إذ كذبتني الناس ، واستنى بمالها إذ حرمتني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » . وقد أوفى لها بعد وفاتها فكان دائم التذكار لها . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأدركتني العيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوراً ، وقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب حتى اهتر مقدم شعره من الغضب . ونقل السيدة عائشة أيضاً : « كان رسول الله إذا ذبح الشاة يقول أرسلوا

إلى أصدقاء خديجة ، قالت : فذكرت له يوماً ، فقال : إني لأحب حبسها . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم . كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من نساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد . وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وفي رواية أخرى . قال صلى الله عليه وسلم : « خير نساء العالمين مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض أربعة خطوط قال . أتدرون ما هذا ؟ قالوا . الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم » . وفي هذا أيضاً يقول الكاتب الفرنسي « أنثيه ديبه » في كتابه « محمد رسول الله » : « كان لخديجة في نفس الرسول جاذبية قوية فلم يشرك معها غيرها طيلة حياتها ، وبرغم أنه كان في ريعان شبابه ، فإنه لم يقبل الزواج بأخرى مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك ، ومع أن الأسباب من كل جانب كانت تمهد له وتغري به . وإذا كانت قد فارقت فإن ذكرها دائماً كانت على لسانه ، وكانت عائشة التي صارت زوج الرسول المفضلة تجد لدع القبرة ، ونحس به في قسوة . وبرغم جمال عائشة وذكائها ، وما تحلت به الأخريات من جمال وفطنة . فإنه كان دائماً يفضل عليهن خديجة ، ويعدها واحدة من أربع نساء أكمل من وجدن على طهر السبيطة ، أم الثلاث الأخريات فهن : آسية امرأة فرعون التي أنقذت موسى ، ومريم أم عيسى ، وفاطمة الزهراء . »

رُوى عن السيدة خديجة ما قالته للرسول صلى الله عليه وسلم حين فاجأه الوحي ، فعندما قال الرسول : « لقد خشيت على نفسي » أرادت أن تسرى عنه ، وقد آمنت أنه الوحي . وليس يعارض من عوارض الجنة : « كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانات » .

وفى ذلك يقول « درمنجم » فى كتابه « حياة محمد » ، واصفاً وفاءها : « جاءها زوجها من غار حراء خائفاً مقروراً ، غريب النظرات فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة ، وإخلاص الزوجة ، وحنان الأمهات ، وتضمه إلى صدرها ، فيجد فيها حنان الأم الذى يحتمى به من كل عدوان فى الدنيا » .

وفى ذلك أيضاً تقول الدكتورورة بنت الشاطىء : « هل كان لزوجته عداها أن تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء مثل ما استقبلته هى به من حنان مستثار ، وعطف فياض وإيمان قوى ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقيسها فى أن الله غير معزیه أبداً ؟ هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة ، غية مرفقة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما ألقت من راحة ورحاء ونعمة ، لتقف إلى جانب رجلها فى أحلك أوقات المحنة ، وتعينه على أفدح ألوان الأذى ، وصوف الاضطهاد ، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق ، كلا . بل هى وحدها ، ولا امرأة إلا مثلها ، التى أعدتها الأقدار لتملاً حياة الرجل الموعود بالسوة ، وتكون للتيم أمّاً ، وللبطل ملهمة ، وللمناضل ملاذاً وسكناً ، وللنبي المبعوث ثقة وطمأنينة وسلاماً » .

ويقول ابن إسحاق : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئاً يكرهه ، من ردٍّ عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرَّج الله عنه بخديجة رضى الله عنها ، إذا رجع إليها تثبته ، وتخفف عنه ، وتصدقته ، وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت ، رضى الله عنها » .

أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أقرئ خديجة السلام من ربها » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » .

ولا بد هنا من وقفة قصيرة ، قل أن أدخل في سيرة السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء ، فقد حدث في إحدى الأزمت أن كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان ، وتطوف في آفاق نفسه ، لتطهرها من كل شر ، لا يخرج من هذا البيت إلا وهو قدوة الناس في الخير والصلاح ، وكان هو لاهياً عما أعد له ، وعابثاً بمثل ما يعث به أثرابه ، ولم يكن هذا الصبي يتيماً ، بل كان أبوه حياً ، ولكن أبناء السعادة ، أبناء المجد الأبدي ، أبناء المجد السرمدي تستأثر العناية الأزلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة رظواهر يميزها من هيئت بصائرهم للاطلاع الجيد .

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح - وهو حي - أن يتربى كالإيتام في غير بيته ، لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير « أبوطالب » . ولكن اشتداد الأزمة في إحدى السنين اضطره أن يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الأمين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولدأ من أولاده تخفيفاً عنه ، فكان هذا الأسعد الذي أخذه الأمين هو علي الذي صار

الإمام أبا الأئمة ، وبدرسماء السيادة في الأمة .

كانت تربية عليّ في هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة خديجة من حسن الحظ ، فإن الغيب كان يعدّه لأمر جليل له علاقة بهذا البيت . لعله لم يخطر على بال أهل هذا البيت إذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم ، فيسرون به ، سيكون الوسطة الوحيدة لحفظ نسلهم . ومن أين كانت تعرف السيدة خديجة أنه لن يعيش لها من الذكور ولد ؟ وأن هذا الصبي قد أعدّه الغيب ختناً كريماً وبعلصالحاً لنتها الصغيرة ؟ وكيف تعلم أنه لا يتسلل لها عقب إلا من تلك الكريمة فاطمة الزهراء ؟ وأنّي يخطر في بالها أنها كانت تربي هي وروحها جداً لعتره تنصل بهذا البيت ، سيعدها العالم من أشرف العتر . وستبقى مباركة في الأرض دهوراً طويلة ، عالية المنار . عظيمة الشأن ؟ وقد استفاد من هذا البيت كثيرون . أما عليّ فإنّ أخصه بالذكر ليعرف من عرفه ، أوسمع بمناقبه العاليه وفصائله الكثيرة ، كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للأرواح ، كما كان مسعداً للأبدان ، ثم ليعرف أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صيماً قد كان مهداً لأكرم الآداب وأعلاها فإن عليّ المرتضى هو من عرفه العالم كله . هو ذلك الإمام الأكبر الخلق أن يكون مثال النبل وعظمة النفس ، هو مجمع المعالي وملئى الأسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى ، وقد نعم عليّ بالحنان الكامل من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن السيدة خديجة حناناً دونه حنان الآباء والأمهات .

ومن السيدة خديجة رضى الله عنها ولد للنبي صلى الله عليه وسلم جميع

أبنائه . وهم : القاسم ، والظاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وفاطمة . وقد مات القاسم والطيب والظاهر بعد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم . فكان العاص بن وائل السهمي يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبتر ، لأن العرب كانوا يسمون من ليس له ابن بالأبتر ، فأنزل الله تعالى : (إِنَّا أَعْظَمْنَاكَ الْكُوْثَرَ) (١) .

على أنه إن كان لا خلاف في أن أولاد الرسول عليه الصلاة والسلام كلهم من السيدة خديجة رضي الله عنها ، ما عدا إبراهيم ، فإن الرواة اختلفوا في عدد الذكور .

ويقول ابن إسحاق : أكرهني القاسم ، ثم الطيب ، ثم الظاهر . والطبري يقول : ولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، القاسم ، والطيب ، والظاهر وهو عبد الله ، وزيب ، ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة .

وفي الاستيعاب : وأجمعوا أم ولد له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهارن . وهن : زيب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم ، كما أجمعوا أم ولد له ابناً يسمى القاسم ، وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم . ويقول معمر عن ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولداً يسمى الظاهر .

وقال عقيل عن ابن شهاب : ولدت له خديجة : فاطمة ، وزيب ، وأم كلثوم ، ورقية ، والقاسم ، والظاهر .

(١) والكوثر نهر في الجنة ، أو هو الحير الكثير ، أو هو كثرة الدرية والنسل ، وكل أولئك خص به المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد ظهرت الكثرة في سله من ولد فاطمة رضي الله عنها ، ويتصل سله صلى الله عليه وسلم إلى يوم اقيامة إن شاء الله .

وقال قتادة : ولدت له خديجة أربع بنات وغلأمين هما : القاسم
وبه كان يكنى ، وعبد الله مات صغيراً

وفى « الروض الأنف » للسهيلى رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد :
« ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب سمي بالطاهر
والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمي به أولاً عبد الله ، وبلغ
القاسم سن المشى ، غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات » - وفى
الإصابة « فولدت له القاسم وعبد الله وهو الطيب والطاهر - سمي بذلك لأنها
ولدت في الإسلام » .

وقد رتهم العالم الشيخ أحمد الحلوانى فى كتابه : - مواكب الربيع
فى مرئذ التثنيح - بحسب ترتيب ولادتهم فقال :

بالقاسم ابن المصطفى وبزينب ورقية هب لى القبول وقاطمه
وبسام كلثوم وعبد الله جُد وقى بإبراهيم شر الحاطمه
على أن التوفيق بين هذه الروايات ليس بممتنعاً^(١) فيما يختص بعدد
أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد يقال : إن اللقب التيس بالاسم وجعل
الطيب والطاهر ولدين مع القاسم ، فهم ثلاثة أو مع القاسم وعبد الله فهم
أربعة ، وما الطيب والطاهر سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبي
صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة ولدان اثنان ، وهو المشهور عند
جمهور المسلمين ، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل الروايات . أما
فما يختص بوقت ولادتهما ووفاتهما ، فالتوفيق فيهما أشق وأعسر ، فقد
انفرد ابن إسحاق بالرواية عن موتها فى الجاهلية ، على حين روى غيره أن

(١) بات النى ، للذكورة بت الشاطن

القاسم ولد في الجاهلية ومات في الإسلام ، وأما عبد الله فولد ومات في الإسلام . وذكروا في سندهم الزبير بن العوام وهو ابن أخت السيدة خديجة وأحد العشرة السابقين إلى الإسلام .

وروى ابن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان أكبر ولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم ، ثم زينب ، ثم عبدالله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية - فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة ، ثم مات عبد الله .

وقال ابن سعد : ثم ولدت له مارية بالمدينة إبراهيم ، في ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ، فمات ابن ثمانية عشر شهراً .

وكانت السيدة خديجة إذا ولدت ولداً دفعته إلى من يرضعه ، فلما ولدت فاطمة لم يرضعها غيرها .

وقد أنشأ الأب لامنس المستشرق اليسوعي كتاباً بالفرنسية عن فاطمة وبنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، استند في إنشائه إلى مصادر كثيرة ، وذهب فيه المذاهب المنكرة ، فتارة ينكر وجود بعض بنات الرسول ، وتارة يتعمد إبداءهن بما لا يتورع عن نشره من أخبار عنهن تضطرب في كثير من الإفك والبهتان . ويدكر لامنس حب الرسول للبنين ورغبته في أن تكون له ذرية . وكيف أنه كان يعير بين قومه بضعف ذريته ويسمونه « محمد الأبر لا يعيش له ولد ذكر » ، وكيف رد القرآن على هؤلاء فقال : (إِنَّ شَأْنَكُمْ هُوَ الْأَبْتَرُ) ، وكيف كان غيرهم يقول : « إن محمد ليس له ولد ولا أخ ، فإذا مات انقطع ذكره » . وإن هذه الأسباب كلها حملت مؤلفي السيرة على الإكثار من أبناء محمد وبناته كالطيب والمطيب ، وعبد العزيز ،

وعبد مناف ، مع أنه من الصعب إثبات وجود هؤلاء الأبناء ، وخصوصاً أن مؤلفي السيرة النبوية أنفسهم يختلفون في أسمائهم ووجودهم .

وكما ذكرت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع بنات وثلاث بنين ، وكما بينت ، كلهم من السيدة خديجة رضى الله عنها ما عدا إبراهيم .

ومن سخافة لامنس وتفاهته أنه يحاول جهده أن يثبت أن الزهراء لم تتزوج قبل الثامنة عشرة ، لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق أن أحداً يحطبها بعد تلك السن . ثم يقول إنها لما عرض عليها النبي صلى الله عليه وسلم الزواج من على سكنت هيبه ، ولكنها لم تسكت خجلاً بل دهشة من أن يحطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت لأنها تزوج من رجل فقير . وقد فند الأستاذ العلامة عباس محمود العقاد هذه الفرية فقال : « لو كان السند الذى استند إليه هذا المستشرق واضحاً ملزماً لقلنا إنها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم في الأمانة العلمية ، لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله أساد أخرى تنقضه ، وتراءى للمستشرق حينها نظر حوله ، ولكنه لا يجب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى ما يعيب ، ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه .

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وأن أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كإبي العاص بن الربيع وعثمان بن عفان ، وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال وأن تحرمه إحدى البنات . والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج ، والدعوة المحمدية في إبانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقم غير آمن . والحال قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على

المسلمين ، وهؤلاء المسلمون فئة ، منهم المتزوج ، ومنهم من لا طاقة له
بالزواج ، فلا حاجة بالمستشرق إلى البحث الطويل ، ليهتدى إلى السبب
الذى يؤخر زواج بنت النبي إلى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الحميلات
وفى وسعه كذلك أن يتصور ، أن النبي يخص بها ابن عمه ، وبتنظر بها به
البنت ، حين تبدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ، ويستقر على حال بينه
وبين آله الذين لا يزالون على دين الحمية ، فلا هم في ذلك الوقت ذروه ،
ولا هم بعدهم . كل ذلك قريب كان في وسع ذلك المستشرق أن يراه
تحت عينيه قبل أن يذهب إلى العلة التي اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى
له من علة غير فقدان الجمال

على أن لامس لم يترك حتى ميلاد السيدة الزهراء بدين أن يحاول
أن يحرف فيه ، وأن يخلق الأكاذيب ويستمر فيها . فحمل السيدة
فاطمة حتى البكر لبنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع أنها لم تكن
البكر كما بينا . وذهب لامس إلى الاستناد إلى بعض المؤرخين ولم يذكرهم
بأسمائهم ، شأنه في كل قول مخلق في الكتب التي ألفها ، ثم ذهب
إلى أن كتاب السير أروا ميلاد السيدة فاطمة الزهراء حتى تكون في سن
الفترة حين يحطها على بن أبي طالب ، وحتى لا يقال إن خطوبتها قد تأخرت
كثيراً عن أخواتها ، وإن أحداً لم يهتم بها ، ولم يطلبها ، ولم يفكر فيها ، ولقد فاتته
أن جميع كتاب السير أجمعوا على أن زينب ورقية تزوجتا قبل فاطمة . ثم
هل كان على بن أبي طالب بعيداً عن بيت رسول الله حتى يعطى عليه الأمر ،
ليقال له إن فاطمة صغيرة في السن أو كبيرة ؟^١ ووات لامس أن علياً ترى في
بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويستمر لامنس في مخافته وأكاذبه فيقول : « إنه لكي يصل إلى صورة حقيقة لفاطمة يجب علينا أن نترك الأكاليل الذهبية التي عقدها المؤرخون على مفرقها ، وأن نعرض لها وفاقاً للنقد التاريخي المعاصر ، فقد كانت فاطمة في حياتها وفي بيت والدها تعامل معاملة عادية من والدها ومن غير والدها من الصحابة وغير الصحابة ، وليس هناك ناحية واحدة ترى منها فاطمة تتمتع بحظوة واحترام يفوقان ما كانت تستمتع به بدويات ذلك الزمن ، ولم يكن شأنها في بيت والدها خطير الأثر بادي الخطورة ، بل لقد كان خطرها أقل شأنًا من خطر عائشة وحفصة وزينب وغيرهن من ساء النسب . ولكن نتأكد من ذلك علينا أن نطلق البصر في السير القديمة كسيرة ابن هشام مثلاً ، فإن فاطمة ذكرت في هذه السيرة مرتين فقط .

ويستمر لامنس في أكاذبه وحقه الدفين : فيقول أما هذا الإكبار والتعظيم والتقدیس الذي يتمتع به أهل البيت اليوم فقد نشأ في الجيل الثاني .

وأظن أنني لست في حاجة إلى الرد على هذا الكذب الصريح والحقد الدفين ، فسرى القارئ الكريم في هذا الكتاب الرد الصريح على هذا الافتراء . ويكفي الزهراء رضي الله عنها شهادة والدها الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « إن الله بغضب لفضلك » و « يرضى لرضاك » ، ويقول أيضاً : « فاطمة مني » ، يؤذيني ما آذاها ويرينى ما رابها » ، وقد شهدت السيدة عائشة رضي الله عنها لفاطمة الزهراء ، فقالت : « ما رأيت أفضل من فاطمة إلا والدها صلى الله عليه وسلم » .

ويستمر لامنس في كتابته عن بنات الرسول فيقول : « إن أسماء

بنات محمد كما تذكرها السيرة أسماء عادية ، وإن رقية وأم كلثوم ماتتا بدون أن يتركن ذرية ، وإن أم كلثوم ليس اسم ثان غير كتيبتها ، وإيها تزوجت هي ورقية بابني عمهما أبي لُهب ، ثم تحلى زوجهاها عنهما ، فتروجهما عثمان بن عفان الأولى بعد وفاة الثانية « . ويزيد لامنس أن مؤرخي السيرة أبعد وارقية إلى الحبشة ، ثم أعادوها إلى والدها الذي وجدها ميتة بعد رجوعه من معركة بدر ، وأن اسم أم كلثوم مذكور مرة واحدة في تقدم كتب لسيرة ، وآلا وجود حقيقى لهاتين الأنثيين ، وأن مؤلفي السيرة النبوية قد اخترعوها اختراعاً ، ولفقوهما تلفيقاً للإكثار من نسل الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

ووقف لامنس من تسمية عثمان بدى التورين لما تروح باثنتين من بنات رسول الله ، فقال : « إن الأسماء المبتدأة بدى ودو كانت كثيرة عند العرب ، فكانوا يسمون ذا اليمين ، وذا الوجهين ، وذات الطاقين ، ولذلك فإن لقب عثمان هذا لا يحملنا على الإيمان بأنه إنما لقب به لرواحه باثنتين من بنات النبی ، إذ لا يعد أن يكون هذا اللقب من أسمائه الأولى » .

ويتكلم لامنس عن « زينب » ابنة الرسول الأولى ، فيعجب كيف انقضت ذريتها دون أن تثير اهتمام العالم الإسلامى ، يعجب لماذا لم تهاجر مع والدها إلى المدينة لما اضطر إلى مغادرة مكة ، وقد ذكر اليعقوبى : « أنها ظلت مع زوجها أبى العاص بن الربيع بن العزى بن عبد شمس بن خالتها ، وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة لأُمها وأبيها » .

فلا يسبق لامنس هذا الخبر ، ويذهب إلى القول بأنها أبت مفارقة زوجها ، وفصلت البقاء معه على الهجرة مع والدها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستند فى ذلك إلى ما جاء فى تاريخ الطبرى : « ولم يزل أبو العاص

معها -- أى زينب على شركه إلى قبيل ففتح مكة . والسيدة زينب رضى الله عنها هى أكبر بنات النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تزوجت ابن خالتها أبا العاص بن الربيع قبل النبوة ، وكانت محبة لزوجها . ولما أسر أبو العاص فى وقعة بدر ، وكان مع مقاتلة قريش ، أرسلت زينب فى فداثة (الربيع) بحال دفعته إليه ، ومن ذلك قلادة كانت أمها خديجة قد أهدتها إياها يوم زواجها بأبي العاص ، فلما رأى رسول الله القلادة رق لها ، وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا » ، فقالوا : نعم ، وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله مصافياً له ، وقد أئى أن يطلق روجه لما طلبت قريش ذلك منه ، ولما أطلقه رسول الله من الأسر شرط عليه أن يرسل زينب إلى المدينة ، فوعده وفى بوعده ، ولم تزل زينب بالمدينة ، وأبو العاص بمكة على شركه ، وكان قد طلق بينهما رسول الله ، حتى خرج أبو العاص بتجارة إلى الشام قبيل الفتح ، فبينما هو عائد من تجارته لقيته سرية لرسول الله ، فأخذته ومن معه من رجال وعير وأموال ، وبممكن أبو العاص من الهرب ، وعاد إلى المدينة متخفياً ، فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، فلما صلى رسول الله صلاة الصبح صاحبت زينب : « أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع » ، فلما سمع ذلك رسول الله أقبل على الناس ، وقال : « هل سمعتم ما سمعت ؟ » ، فقالوا : نعم ، فقال : « والذى نفسى بيده ، ما علمت بذلك حتى سمعتم » . وقال : « يجير على المسلمين أذنهم » . ثم دخل على ابنته فقال لها : « أكرمى مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلى له » . قالت : « إنه قد جاء فى طلب ماله » ، فجمع رسول الله من الله عليه وسلم رجال تلك السرية ، وقال : « إن هذا الرجل منا حيث

علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، وهو مما أفاء الله عليكم به ، وأنا أحب أن تحسبوا
 وتردوا عليه الذى له ، فإن أبيتم فأنتم أحق » ، فقالوا : « بل نرده عليه » ،
 وردوا عليه ماله جميعه ، فعاد إلى مكة ، وأدى إلى الناس أماناتهم ، ثم سأل
 أهلها : هل لأحد فى ذمته بقية مال ؟ فقالوا : لا ، فقال : « فإذا كان الأمر
 كذلك ، فاعلموا بأني قد أسلمت » ، وعاد إلى رسول الله فأسلم ، ورد عليه
 الرسول زوجه بمهر جديد ، وولدت له زينب علياً وأمامة ، وقد توفى على وهو
 صغير ، وعاشت أمامة حتى تزوجها على بن أبي طالب ، تنفيذاً لوصية
 السيدة الزهراء كما سئى بعد قليل ، وكان رسول الله يحبها ، وهى التى كان
 يحملها فى الصلاة على عاتقه ، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من
 السجود أعادها .

أصهار الرسول عليه الصلاة والسلام :

أما زينب فكما بينت كان زوجها أبو العاص بن الربيع ، وهو قرشى
 صميم ، يلتقى بسبه من جهة الأب مع محمد بن عبد الله . . . بن عبد مناف
 ابن قصى ، فهو أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن
 عبد مناف بن قصى ، ويلتقى نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد عد
 جدهما الأدي خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه « هالة بنت
 خويلد » أخت خديجة الطاهرة زوج محمد وأم زينب .

وأما رقية وأم كلثوم فقد خطبتا لعتبة وعتيبة ابني العمة ألى لخب ، ولم
 تترح السيدة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها إلى هذه الخطبة ، وكأنها
 كانت تقرأ الغيب ، وكانت لا تستريح بطبيعتها لأمهما « أم جميل بنت

حرب « زوجة أبي هب وأم ولديه ، ولو كان الأمر بيد السيدة خديجة لحالت دون إتمام هذا الزواج . وكانت أم جميل قاسية القلب شرسة الطمع حادة اللسان . وقد كانت فراسة السيدة أم المؤمنين في محلها ، ولم يكذب ظنها ، فما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه ويدعو إلى الدين الجديد حتى أخرجت حمالة الحطب رقية وأمّ كلثوم من بيت أبي هب ، وردتا إلى بيت أبيهما . وقد كان هدف « أم جميل إيجاد المتاعب أمام النبي صلى الله عليه وسلم ، ومحاربة خديجة أم المؤمنين في بناتها ، وتعكير صفو الحياة الزوجية ، وتوقف نشاط الدعوة . لكن خاب ظن حمالة الحطب وظنّ المشركين من قريش ، فلم يشغل الرسول عليه الصلاة والسلام بابتتبه عن دعوته ، ولم يشق عليه رجوعهما إلى بيته ، فقد نحاها الله من محنة العيش مع ابني حمالة الحطب ، ثم ما لبث أن أندلها خيراً منهما زوجاً صالحاً كريماً أحد العشرة المشهود لهم بالحنّة ، وهو « عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس » ، وتزوج عثمان رقية ، وكنا أول من هاجرا إلى الحبشة ، ثم عادا إلى مكة مع بقية المهاجرين ، ثم هاجرا مع الرسول إلى المدينة ، فمرضت رقية بالحصبة وماتت ، ولم يتيسر لزوجها عثمان بن عفان أن يشهد وقعة بدر بسبب انشغاله بزوجته . وكانت وفاتها يوم ورد البشير إلى المدينة بصبر المسلمين وهزيمة قريش في تلك الوقعة الحاسمة ، وقد سميت رقية ذات المجرتين .

وقيل : إن عثمان كان قد أصيب بالجدري قبل الخروج إلى بدر ، فعال مرضه ومرض زوجته دون الخروج إليها مع جلة الصحابة . وكانت غبطة عثمان بمصاهرة النبي عليه الصلاة والسلام عظيمة ، وحزنه

لانقطاع هذه الصلة أعظم ، فلم يُر بعد ذلك إلا محزوناً مهموماً ، لفقد زوجته وانقطاع صلته بنيه وأكرم الناس عليه ، ورآه النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الحال فسأله : « ما لي أراك مهموماً ؟ » ، قال فيها رواه سعيد بن المسيب : « وهل دخل على أحد ما دخل على يارسول الله ؟ ماتت ابنة رسول الله التي كانت عندي ، وانقطع ظهري ، وانقطع الصهر بيني وبينك » ، فطلب النبي خاطره وزوجه أختها أم كلثوم ، وبقيت معه إلى أن توفيت في السنة التاسعة للهجرة ، بعد بناءه بها بست سنوات .

وقد سمي بذي النورين لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتي النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره .

وبذلك تكون أم كلثوم بزواجها من عثمان بن عفان قد نجحت ، كما نجحت أختها ، من حمالة الحطب ، وقد شهدت عودة الرسول منتصراً من بدر . أما الزهراء فاحتار الله لها على بن أبي طالب .

هؤلاء هم أصهار الرسول صلى الله عليه وسلم : أبو العاص بن الربيع ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب . وما لاشك فيه - كما سنرى - في الكتاب القادم الخاص بالإمام علي - أن الإمام علي كان أحب شخصيه إلى الرسول ، فهو من هذه الناحية أقرب أصهاره إليه مكاناً وأمسهم رحماً ، في عروقه يجري الدم الهاشمي الأصيل ، وعند عبد المطلب يلتقي نسبه بتسب الرسول ، فكلاهما حفيد .

سيدة النساء :

هي السيدة فاطمة^(١) الزهراء ولها تسعة أسماء : فاطمة ، والصديقة والمباركة ، والطاهرة ، والزكية ، والراضية ، والمرضية ، والمحدثة ، والزهراء وكان يطلق عليها أم النبي ، أو أم أبيها ، وذلك لأنها كانت أصغر بنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولأنها كانت في البيت وحدها بعد موت السيدة خديجة ، فتولت رعاية الرسول والسهر عليه .

ويقول الأستاذ فاضل الحسيني إنه من الطبيعي أن تكون الزهراء أمًّا للرسول صلى الله عليه وسلم في رسالته لا في ولادته . ولعله لأمر قد قدر كان النبي صلى الله عليه وسلم على علم من أنه سوف لن يعقب إلا من الزهراء ، فتكون هي التيار الذي يحمل نوره عبر أسلاك الزمن ، ولتضاء

(١) لم يكن اسم فاطمة غريباً عند العرب ، فقد كانت زوج أبي طالب وأم علي تسمى فاطمة . وستكلم عليها في جزء مقبل ، إن شاء الله .

وفاطمة بنت حمزة ، وهي بنت الشهيد عم النبي صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة ، وتسمى أمانة ، وتكنى أم الفضل ؛ وكان رسول الله يعطف عليها ويدها ، ويتبلى بنفسه أمرها ، لما لها من مكانة ، ولأنها من منزلة ، ولما تقضى لها عطفة الرحم وآصرة القرابة . وقد رويها من سلمة بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم . وهما صبيان صغيران - وقد ماتت قبل أن يدخل بها . أما هو فعاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان . وقد أهدى رسول الله إلى حل حنة استرق ، فقال : احبها حمراً بين الغراطم . فتقها أربعة أحمره : خماراً لفاطمة بنت الرسول ، وخماراً لفاطمة بنت أسد ، وخماراً لفاطمة بنت حمزة ، وراعيها لفاطمة بنت عتبة .

وفاطمة بنت عتبة هي أخت هذ روجة أبي سفيان صخر من حرب ، وبخلة معاوية ، وأبوها عتبة سيد من سادات قريش ، وقد تزوجها فرقة بن عبد عمرو بن نوفل ، فولدت له أنجب المذكور وكرائم الإناث ، وتزوج معاوية من بنتها فاختة . وغيرهن من الخواطم .

الشريفة بعد ذلك من هذا النور الفياض . ولذلك كان يحبها حباً جماً ، كما سترى بعد قليل ، حتى إنه كان يناديهـا أحياناً بأم أبيها .

إن التاريخ يؤكد حينما ينقل تكراراً على لسان النبي : « فاطمة أم أبيها » ، وحينما نرى أنه كان يعاملها معاملة الأم ، فيقبل يدها ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه إلى المدينة إنه اليتيم . يجعل الطفل يحسن إلى أنثى تحنو عليه بدل أمه ، فقد توفيت « آمة بنت وهب » أم النبي صلى الله عليه وسلم وهو طفل صغير ، فتعلق قلبه حينذاك بفاطمة بنت أسد ، أم الإمام على عليه السلام ، لقد كان يناديهـا : يا أماه . وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وسمع يقول : « ماتت أُمِّي » . ورزق صلى الله عليه وسلم فاطمة ، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد ، وتسلى بابتسائها ، وقد كُتِبَ بأم أبيها .

إنه الرسول العبقري ، لا يهب الألقاب عبثاً ، ولا يمنح الكنى تشهياً ، وإنما هي الحكمة تضع الشيء في موضعه . وسبان في هذا للعمود من النور المتطاوون برأسه إلى عidan السماء أن تكون فاطمة بنتاً لأبيها وأماً له ، وسبان في دوحة الشرف أصل وفرع ، ما دام الجميع يهب من إشعاعه وتدفقه ما يعجز الغير عن اللحق به ^(١) .

١ - فهي فاطمة ، وعن على رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة : يا فاطمة ، أتدريين لم سميت فاطمة ؟ قال على : يا رسول الله ، لم سميت فاطمة ؟ قال إن الله عز وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول

(١) فاطمة لزهراء ، للأئمة فاضل الحسنى .

الله عليه الصلاة والسلام : إن ابنتي فاطمة حوراء ، إذ لم تحض ولم تطمث ، وإنما سماها فاطمة ، لأن الله عز وجل فطمها ومحيها من النار . وقال أبو جعفر محمد الباقر رضي الله عنه ، لما ولدت فاطمة عليها السلام ، أوحى الله إلى ملك وأطلق به لسان محمد صلى الله عليه وسلم فسماها فاطمة ، ثم قال إن الله تعالى فطمك عن الطمث .

٢ - ولقبت بالزهراء ، لأنها كانت بيضاء اللون ، وعن جعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم عن أبيه - قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام ، عن فاطمة : لم سميت الزهراء ؟ فقال : لأنها كانت إذا قامت في محرابها يزهر نورها لأهل السماء ، كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض ، وروى أنها عليها السلام سميت الزهراء ، لأن الله عز وجل حبقها من نور عظمته ، وقيل إنه حين وضعتها السيدة خديجة رضي الله عنها حدث في السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك اليوم ، وبذلك لقبت بالزهراء . وقيل إنها سميت الزهراء ، لأنها كانت لاتحيض ، وكانت إذا ولدت ظهرت من نفاسها بعد ساعة حتى لاتقوتها صلاة .

٣ - وبالحدثة لأن الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها ، كما كانت تنادي مريم ابنة عمران عليهما السلام . ويحدثها روح القدس .
٤ - وبالصديقة ، والمباركة ، والطاهرة ، والزكية ، والراضية ، والمرضية ، وهي آيات على ما اتسمت به رضي الله عنها من الصدق والبركة ، والطهارة ، والرصا ، والعلمانية .

٥ - ولقبت بالبتول ^(١) ، لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ، ودينياً ،

(١) البتول في اللغة انتقطع .

وحسباً . وقيل لانقطاعها عن الدنيا إلى الله تعالى . وفي تاج الدروس :
 لقبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتول تشبيهاً لها بمريم
 في المنزلة عند الله تعالى .

وقال ثعلب : لانقطاعها عن نساء زمانها ، وعن نساء الأمة فضلاً ،
 ودينياً ، وحسباً وعقافاً . وهى سيدة نساء العالمين .

وقيل التول من النساء المنقطعة عن الدنيا إلى الله تعالى ، وبه لقبت
 فاطمة رضى الله عنها . وفي مجمع البحار : سميت مريم وفاطمة عليهما
 السلام بالتول لانقطاعهما عن نساء زمانهما . فصلاً ودينياً ، وعن الدنيا
 إلى الله تعالى . وعن عمر بن علي رضى الله عنهما : أن النى مثل عن
 التول ، وقد قيل له : سمعناك يارسول الله تقول مريم بتول ، وفاطمة بتول :
 فما ذلك ؟ فقال : « التول التى لم ترحمة قط » ، أى لم تحض ، فإن
 الحيض مكروه فى بنات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعن أسماء بنت
 عميس قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كنت شهدت
 فاطمة قد ولدت بعض ولدها ، فلم أر لها دماً ، وسألته فقال : يا أسماء ؟
 إن فاطمة خلقت حورية إنسية ، أما علمت أن فاطمة طاهرة مطهرة ؟

لقد كانت فاطمة إلى جانب إنسانيتها تحمل كل صفات الملائكة
 وسمات الحور العين كانت إنسانة ، وكانت حوراء .

ولقد قال أبوها العظيم صلى الله عليه وسلم : « خلق الله نور فاطمة قبل
 أن يخلق الأرض والسماء » - فقال بعض الناس : يابنى الله ، فليست
 هى إنسية فقال : « فاطمة حوراء إنسية » ومن علامات الحور العين
 أنها لاتنطمث ، فقد قال تعالى : (لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) ،

وكذلك الزهراء فإنها كانت طاهرة من الحيض والنفس . وقد أجمع المسير
على أنها لم ترحيضاً ولا تناساً . وهذه ميزة فريدة امتازت بها على بنات حواء

مولدها :

وُلدت السيدة فاطمة رضي الله عنها بمكة يوم الجمعة العشرين من
جمادى الآخرة ، وقريش تبنى الكعبة ، وذلك قبل البعثة بحمس سنين (١) ،
وهي أصغر بنات الرسول صلى الله عليه وسلم .

دخل العباس رضي الله عنه على علي وفاطمة - رضي الله عنهما
وأحدهما يقول للآخر : أينا أكبر؟ فقال العباس : ولدت يا علي قبل
بناء قريش البيت بسوات ، وولدت أنت يا فاطمة وقريش تبنى البيت .
وكان مولدها بشير سلام ومن للقريشيين جميعاً لأن مولدها وافق اجتماع قريش
لبناء الكعبة ، فجمعت القبائل من قريش الحجازة لسنائها ، كل قبيلة
تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، فاختصموا
فيه ، فقال أبو أمية بن المغيرة ، وكان وقتئذ أسير قريش كلها : يا معشر

(١) قيل إنها وُلدت بعد بعث النبي ، فإنه الشيخ الطوسي في مصباح المتعدين . وفي رواية
أخرى سنة خمس من البعثة ، وقال الكشي في شهر رجب . وُلدت بعد البعثة بحمس سنين ، وهو
الروى عن أبيه ، وهو المشهور في كشف الغممة عن بن الحشاش في موايد ووفيات أهل البيت
مرجوع عن ناقريها . وُلدت بعد سنة خمس سنين ، وقريش تبنى البيت ، وبعده اشتاء من الروى أو سهو
من السماع ، فناء لكعبة كان قبل النبوة لابعدها ، ويدل عليه ما في مقاتل الظالمين أنها وُلدت قبل النبوة
وقريش تبنى الكعبة وروى الحاكم في المستدرک وس عبد الله في الاستيعاب أنها وُلدت سنة واحدة
وأربعين من مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، أي بعد البعثة سنة . وأكثر علماء أهل البيت تروى أنها
وُلدت قبل البعثة بحمس سنين .

قريش ، اجعلوا بينكم حكماً فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا
مسجد ، يقضى بينكم فيه ، ففعلوا . وبينما هم في انتظار أول داخل
دخلوا شاباً ، تام الفتوة ، رزين الحركة ، سى الطلعة ، ذا جد ووقار ،
فهنأوا جميعاً وقالوا : « هذا الأمين رضىناه ، هذا محمد » ، فلما انتهى
إليهم عرضوا عليه خلافهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هم ائى ثوباً » .
ثم تناول الحجر ، فوضعه بيده الكريمة فى وسط الثوب ، وقال : « لتأخذ كل
قبيلة ساحة من الثوب ثم ارفعوه جميعاً » ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به
موضعه وضعه بيده الكريمة مكانه . وفى هذا يقول الشاعر الفرشى هيرة ابن
وهب المحزومى :

تشارحت الأحياء فى فصل حطة	جرت بينهم بالنحس من بعد سعد
تلاقوا بها بالبعض بعد مودة	وأوقد ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده	ولم يبق منا غير سل المهتد
رضينا فلما العدل أول ضاليع	يخىء من لطحاء من غير موعد
فما حائنا هذا الأمين محمد	فقدنا رضىنا بالأمين محمد
خير قريش كلها أمس شيمه	وفى اليوم مع ما يحدث الله فى غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله	أعظم ورضى فى العواقب والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا	له حصه من رفعها قصة اليد
فقل رفعوا حتى إذا ما عمت به	أكفهم ، وإنى به غير مسند
وكل رضىنا فعله وصنيعه	فأعظم به من رضى هدد ومهتد
وتلك يد منه علينا عتيبه	بروح لنا هذا الرمان ويعتدى
فسر تقوم بمكة ، ونسقط الأسارى ، ولاج فى الوجوه نرضا ،	

فقد حقن ابن عبد الله بحكمه السدس دماء قريش وأبقى على وحدتها ، فكان في ربيع عيد صاف عتبة بن ربيعة ، وكان في الربيع الثاني زمعة ، وكان في الربيع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة وكان في الربيع الرابع قيس ابن عدى

وقرب ولادة السيدة فاطمة رضى الله عنها قال الرسول صلى الله عليه وسلم للسيدة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها : يا خديجة هذا جبريل يشرى أنها أنثى ، وأنها النعمة الطاهرة الميمونة . وأن الله تعالى سيجعل نسلي منها ، وسيجعل من نسلها أئمة في الأمة ، ويجعلهم خلفاء في أرضه ، ووضعت خديجة فاطمة ضاهرة مطهرة . فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها نور حتى دخل بيوت مكة ، ولم يبق في شرق الأرض ولا غربها موضع إلا أشرق فيه ذلك النور ، وما إن عرف الرسول صلى الله عليه وسلم بولادتها حتى سجد شكراً لله تعالى ، وقد أطمأن بأنه سيكون منها سلالة وعترته ، فكانت أحب ولده إليه ، وأقرهم لعينة تقول أم سمية : تزوجى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقصر أمر بنته إلى ، فكانت تؤدبها وأدبها ، وكانت والله آدب منى ، وأعرف بالأشياء كلها

نشأتها :

نشأت في بيت النبوة والرسالة ، فأدبت بآداب أبيها ، فكانت المثل لأعلى في الحق الكريم والطبع السليم ، وقد عني بها الرسول عناية تامة ، وكان يتفقهها ثقافة دينية ، ويروضها على الهدى النبوي والضرط المستقيم .

وعن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ، قال : لما جاءت فاطمة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أمرها أعطاه كربة (وهى أصل السعفة العريض العليط) كانوا يكتبون عليها ، فقال تعلمى ما فيها ، فإذا فيها : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليسكت » .

وكانت فاطمة ، رضى الله عنها ، فى نشأتها مضرب المثل فى الكمال والحلال ، وهى رضى الله عنها تمثل أشرف ما فى المرأة من إنسانية ، وصيانة ، وكرامة ، وقداسة ، ورعاية ، وعناية ، إلى ما كانت عليه من ذكاء وقُد ، وفطنة حادة ، وعلم واسع . وكفاها فحراً أنها تربت فى مدرسة النبوة . وتخرجت فى معهد الرسالة ، وتلقّت عن أبيها الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ما تلقاه عن رب العالمين ، ومما لاشك فيه أنها تعلمت فى دار أبيها ما لم يتعلمه طفلة غيرها فى مكة .

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من السات فى حاصرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تصمد جرح أبيها فى غزوة أحد ، وأنها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ، ولا يعينها أحد من لساء و أكثر أيامها .

ويبدو لك انطواء الزهر على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم تعرض قط لشيء غير شأنها ، وشأن بيتها ، ولم تتحدث قط فى غير ما تسأل عنه أو يلجئها إليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هالك فى عمل ولا فى مقال

وسواء صح ما جاء في الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم ، أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذى لا مراجعة فيه أنها سمعت القرآن الكريم من النبی ، وسمعته من علی ، وأنها صلت به ، ووعت أحكام فرائضه ، وأنها وعت كل ما وعته فتاة عربية ، أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعروفة .

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف ، نشأة وفاء واكتفاء . وعلمت مع السنين أنها سليلة شرف لامنازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراهن ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انظوائها على نفسها ، واكتفائها بشرفها ، كأنها في عزلة بين أبناء آدم وحواء . سكنت هذه النفس القوية جثماناً يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتماع له النفس القوية ، والجثمان الضعيف ، فإنهما مزيج متعب للنفس والجسم معاً ، لا قوام له بغير راحة واحدة هي راحة الإيمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر في نشأة الزهراء ، فإنها نشأت في عهد الإيمان ، ودرجت في دار أبيها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جليل لم تتجمع بوادره في غير تلك الدار وغار حراء .

السيدة فاطمة تشبه الرسول :

روى الحاكم في المستدرک بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : سألت أمى عن صفة فاطمة ، رضى الله عنها ، فقالت : كانت أشد الناس شبهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيضاء ، مشربة بحمرة ، لها شعر أسود يتعفر لها . ويقول الشاعر في هذا :

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو داح أسحم
فكأنها فيه نهار مشرق وكأنه ليل عليها مظلم
وفي كشف الغمة عن أم المؤمنين ، أم سلمة ، رضى الله عنها ،
قالت : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه الناس
وجهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : « ما رأيت أحداً
من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ،
وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ، ورحب بها ، وأجلسها في
مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، ورحبت به ، وأخذت بيده
فقبلتها » .

وعن أس بن مالك ، عن أمه ، أن السيدة فاطمة كانت كأنها القمر
ليلة الندر .

وعندما وضعتها السيدة خديجة ، ورأت في وليدتها فاطمة الزهراء
أنها صورة من أبيها العظيم ، سرها ذلك الشبه ، ورأته بركة من بركات الله
عليها وعلى آل البيت الكرام .

وفي كشف الغمة أن بعض الوعاظ ذكر فاطمة ، وما وهبها الله تعالى
من المزايا والفضائل : فقبل في ذلك :

خجلا من نور بهجتها تتوارى الشمس بالشفق
وحياء من شمائلها يتغطى الغصن بانورق

وكل هذا يدفع ما ذهب إليه بعض المستشرقين ، فإن « لامنس » في كتابه عنها
يكر عليها جمال وجهها ، وحن قوامها ، ويعلل ضلاله هذا بتأخر

زواجها . وهذا رأى باطل ، لأن السيدات اللواتي لا يكرن إلى الزواج في المجتمع الإسلامي إنما هن من اللواتي يتعمن بالجمال الرائع ، والحدق البارع ، والدكاء الفارع ، وشرف المحتد ، وشغف الوالدين بهن والفضن بهن . وما ذهب إليه لامنس إنما هو أثر مما لمسه من مشاركة الصارى الذين عاش بينهم . وبين عادات هؤلاء والعادات الإسلامية بون شاسع . ومن الحق أن نقول : إن تأخر زواج فاطمة إذا كان هناك تأخير ، لأنها تزوجت في سن الثامنة عشرة ، وهى سن مناسبة - يعود إلى شغف النبى صلى الله عليه وسلم بها ، وحبه إياها ، إلى قيامها في بيت والدها صلى الله عليه وسلم مقام والدتها زوجه السيدة خديجة الكبرى ، رضى الله عنها ، تعنى بحاجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتعمل على أن تتوافر له راحته الأسرية .

وتقول السيدة الدكتورة بنت الشاطى عندما تزوجت الزهراء كانت بنت ثمانية عشر عاماً ، ولكن الهوى جمع بالمستشرق لامنس فخبيل إليه أنها كانت أسن من ذلك كثيراً ، وإنما عمد بعض كتاب السيرة إلى تأخير ميلادها كيلا يقال إنها ظلت مرهودا فيها مرغوبا عنها إلى أن هتت سن الشباب ، ولعلنا لو سألناه : لِمَ لم يفعل كتاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ لِمَ لم يجعلوا الأولى أصغر سناً ، ويضيفوا إلى الأخرى عشرين أو عشرين ، ليلائموا بينهما وبين زوجهما النبى في السن ؟ أقول لعلك لو سألنا لامنس مثل هذا السؤال لما حار جواباً ، ولا منس قد اعتمد في ذلك على خلاف يسير الشأن في تاريخ مولد الزهراء فاستعله إلى أبعد حد في إرضاء حقه ، وبدلاً من أن يزن الروايات المختلفة ، ويعرضها

على مقاييس النقد والتقويم ، نراه يضع أصبعه على قول نقله « المسعودى »
 لولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام فحسب ، وآخر ذكره اليعقوبى
 بأنها ولدت بعد نزول الوحى ، يضع لامنس أصبعه على هذا القول أو ذاك ،
 ثم يصبوب الطعنة المسمومة متجاهلاً أقوال الكثرة من الثقة الذين عليهم
 المعتمد فى هذا الشأن ، كابن إسحاق وابن هشام والطبرى ، وهم يكادون
 يجمعون على أن مولدها كان قبل البعثة بخمس سنين .

السيدة فاطمة من أهل البيت

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في سورة الأحزاب :
 (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
 فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَقَدْ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ
 تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . وَادْكُرْنَ
 مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) .
 وفي تفسير الآية الكريمة : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ
 أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) .

يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : يقول الله تعالى
 إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل محمد ، ويطهركم من
 الدنس الذي يكون في معاصي الله تطهيراً .

وذكر - أي الطبري - بسنده إلى سعيد بن قتادة أنه قال : إنما
 يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فهم أهل
 بيت طهرهم الله من السوء ، وخصهم برحمة منه . وقال ابن عطية :
 والرجس اسم يقع على الإثم والعذاب وعلى النجاسات والنقائص ، فأذهب
 الله جميع ذلك عن أهل البيت . وقد الإمام النووي : قيل هو الشك ،
 وقيل العذاب ، وقيل الإثم .

واختلف المفسرون فيمن هم أهل البيت :

١ - عن سعيد بن حير عن ابن عباس رضي الله عنهما : قد اختلف في أهل البيت ، فقليل نساؤه لأنهن في بيته ، وكذلك قال عكرمة وابن السائب ومقاتل ، ويقول الزمخشري : إن نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته .

٢ - أما الفخر الرازي في تفسيره (٦٠ ص ٧٨٣) ، والزمخشري في كشفه والقرطبي في تفسيره ، وفتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني الذي استعرض آراء المفسرين ، والظري في تفسير الآية الكريمة (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس . . .) والسيوطي في الدر المنثور في الجزء الخامس ص ١٦٩ ، وابن حجر العسقلاني في ص ٤٠٧ من الجزء الرابع من الإصابة . والحاكم في المستدرک ، والذهبي في تنخيصه ص ١٤٦ من الجزء الثالث ، والإمام أحمد بن حنبل في الجزء ثلاث ص ٢٥٩ فقد قدّموا جمعاً إن أهل البيت هم علي والسيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين ، رضي الله عنهم .

وجه اختصاص الإمام علي رضي الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين بعبارة « أهل البيت » أن أبا سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزلت هذه الآية في خمسة : في وفي علي والحسن والحسين وفاطمة » رضي الله عنهم جميعاً . وعن أم سلمة قالت : في بيتي نزلت : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) . وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين - فجلّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه ثم قال : « هؤلاء أهل بيتي ، فأذهب الرجس وظهرهم

تطهيراً . وعن أم سلمة أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بيتها على مقامة له عليه كساء خيبرى ، فجاءت فاطمة بيرة فيها خريرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ادعى زوجك واسيك حساً وحسباً » ، فدعتهم ، فيسماهم يأكلون إذ نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة ، فأحد نبي صلى الله عليه وسلم بفضلة كسائه فغشاهم إياها ، ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى السماء ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » . قالوا ثلاث مرات - قالت أم سلمة فأدخلت رأسي في السر ، فقلت : يا رسول الله وأنا معكم ، فقال : « إنك إلى خير »^(١) .

وأخرج ابن جرير وابن دوية عن أبي الحمراء قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر بالمدينة ، ليس من مرة يخرج إلى صلاة العدا إلا أتى باب علي ، فوضع يده على جني الباب ، ثم قال :

(١) ذكر المقرئ رواية عن أم سلمة : قلت : وأنا معهم قال : نعم ، فقد تكون هذه الرواية مع سابق الآية ولا احتجها ببدل على دخول الزوجات الطهارات في المراء فيها وحيث تكون شاملة للفرقيين كما هو مذهب الفريق الثالث من المفسرين ، كما هو ميم في السد الثالث . على أن يوسف السباعي ، في كتابه ، لشرف المؤيد لآل محمد ، يقول : « لو نظرنا إلى سابق الآية ولاحتقها من قوله تعالى : (قل لأزواجك إن كنن ترذن الحياة الدنيا) إلى قوله : (ادركن ما ينلن في بيوتكن) لوجدن ضمير جمع لسوة مذكوراً في اثنين وعشرين موضعاً ، عشرين قبلها واثنين بعدها ، ولم يأت ضمير جمع المذكور إلا في عنكم ويظهركم ، فلو كان المراد أزواجه صلى الله عليه وسلم خاصة لكان إتياع هذين الضميرين للثنتين وعشرين ضميراً أولى وأحرى ، ليكون الكلام على نسق واحد ، فم تحصل المحالفة فيها إلا لمخالفة المراد منها للمرد في قبلهما وبعدهما ، ويكون ذلك بشمولهما مع الزوجات المظاهرات ما أفصح الحديث بدخولهم وهم أهل الماء !

الصلاة الصلاة (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) ، وكذلك روى أنس بن مالك : قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر ويقول : « الصلاة يا أهل البيت » .

٣ - والفريق الثالث من المفسرين جعل الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين .

أما الزوجات فلكونهن المراد في سياق هذه الآيات ، ولكونهن الساكنات في بيوته صلى الله عليه وسلم ، النازلات في منازلهم . ويؤيد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره . وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهن قرابته وأهل بيته في النسب ، ويؤيد ذلك ما ذكرناه آنفاً ، وما روى عن أم سلمة رضي الله عنها ، بأنهم سبب النزول . وهي أحاديث كثيرة ، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله وأهمله مالا يحوز إعماله . وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي وابن كثير والطبري وغيرهم .

٤ - والفريق الرابع من المفسرين يقول : هم بنو هاشم . فعن زيد ابن أرقم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أذكركم الله في أهل بيتي » ؟ ثلاثاً . فقيل لزيد : من أهل البيت ؟ قال : « أهل البيت من حرم الصدقة بعده » . وقيل : من هم ؟ قال : آل علي وآل عقیل وآل جعفر وآل عباس ؛ فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب . وأخيراً بسلم ابن تيمية أن المختص بأهل البيت هم الأربعة علي وفاطمة والحسن والحسين .

حديث الثقلين^(١) :

عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا تارك فيكم ثقلين ، أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : وأهل بيتي -- أذكركم الله في أهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي » .
وسئل زيد : مَنْ أهل بيته ؟ - قال : هم من حرم الصدقة بعده ، وهم آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر وآل عباس .

وفي رواية لمسلم : فقلنا : من أهل بيته نسأله ؟ قال : لا ، لأن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها .
أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني تارك فيكم الثقلين - وفي رواية حليفتين - أحدهما أكبر من الآخر : كتاب الله حل ممدود من السماء

(١) أحاديث الثقلين رواها أنجلاء علماء أهل السنة وأكابر محدثيهم في صحاحهم بأسانيدهم المتعددة ، واتفق على روايتها أنفريقان ، فرواها مسلم والترمذي في صحيحهما ، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ، ولثعلبي في تفسيره ، وابن المناذل الشافعي في المناقب ، وصاحب الجمع بين الصحاح الستة . والحميدي من أفراد مسلم ، والسمعاني في فضائل الصحابة موفق بن أحمد ، والطبراني ، وابن حجر في صواعقه ، وغيرهم . ورويت من طريق أهل البيت باثنين وثلاثين طريقاً ، وفي العقد المعروف لابن عبد ربه القرطبي ، وذخائر المعنى لأحمد بن عبد الله الطبري ، ١ ، وتفسير الخازن في آية الاعتصام ، وتفسير ابن كثير في آية المودة ، وفي تفسير آية التطهير ، وشرح هج البلاغة لابن أبي الحديد ، وفي الحلية لأبي نعم الأصبهاني ، وأسد الغابة لابن الأثير ، ولسان العرب لجمال الدين الإفریقی والنور المنشور للسيوطي .

إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي وإنيهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض .
 وفي رواية : أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا بهم تحملوني
 فيهما . وفي رواية أخرى : إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا
 بعدى : الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من
 السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وإنيهما لن يفترقا حتى يردا على
 الحوض .

وفي رواية أخرى : إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما
 وهما كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، فلا تتقدموهما فتهلكوا ، ولا تقصروا
 عنهما فتهلكوا ، ولا تعلموهم فيهم أعلى منكم . فقد يكون هذا صريحاً
 في خروج النساء من أهل البيت واحتصاصهم بعشيرته وعصبه ، وهو
 رأينا الذي انتهيا إليه في ختام هذا البحث ، والله أعلم .

وحديث الثقلين من أوثق الأحاديث النبوية ، وأكثرها ذبوعاً ، وقد
 اهتم العلماء به اهتماماً بالغا ، لأنه يحمل جانباً مهماً من جوانب العقيدة
 الإسلامية ، كما أنه من أظهر الأدلة التي تستند إليها الشيعة في حصر
 الإمامة في أهل البيت ، وفي عصمتهم من الأخطاء والأهواء . إن النبي
 صلى الله عليه وسلم قرنهم بكتاب الله العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين
 يديه ولا من خلفه ، فلا يفترق أحدهما عن الآخر . ومن الطبيعي أن صدور
 أية مخالفة لأحكام الدين تعد افتراقاً عن الكتاب العزيز . وقد صرح النبي
 صلى الله عليه وسلم بعدم افتراقهما حتى يردا على الحوض ، فدلالته على
 العصمة ظاهرة جلية . وقد كرر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث في
 مواقف كثيرة ، لأنه يهدف إلى صيانة الأمة والمحافظة على استقامتها .

وعدم انحرافها في المجالات العقائدية وغيرها . إن تمسكت بأهل البيت ولم تتأخر عنهم .

ولو كان الخطأ يقع منهم لما صح الأمر بالتمسك بهم الذي هو جعل أقوالهم وأفعالهم حجة ، وأن التمسك بهم لا يضل ، كما لا يضل التمسك بالقرآن ، ولو وقع منهم الدب أو الخطأ لكان التمسك بهم يضل ، وفي اتباعهم الهدى والور كما في القرآن ، ولو لم يكونوا معصومين لكان في اتباعهم الضلال ، وأنهم حل ممدود من السماء إلى الأرض كالقرآن ، وهو كناية عن أنهم واسطة بين الله تعالى وبين خلقه ، وأن أقوالهم عن الله تعالى ، ولو لم يكونوا معصومين لم يكونوا كذلك ، وأنهم لم يفارقوا القرآن ، ولم يفارقهم مدة عمر الدنيا ، ولو أخطأوا أو أذنبوا لفارقوا القرآن وفارقهم ، وأنهم لا يتجاوز مفارقتهم أو التقدم عليهم يجعل نفسه إماماً لهم ، أو التقصير عنهم ، والالتزام بغيرهم ، كما لا يجوز التقدم على القرآن بالافتاء بغير مافيه ، أو التقصير عنه باتباع أقوال مخالفه ، كما لا يجوز تعليمهم ، ورد أقوالهم ، ولو كانوا يجهلون شيئاً لوجب تعليمهم ولم يه عن رد قولهم .

وقد دلت هذه الأحاديث أيضاً على أن منهم من هذه صفته في كل عصر وزمان ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، وإن اللطيف الخبير أخبره بذلك ، وورود الحوض كناية عن انقضاء عمر الدنيا ، فلو خلا زمان من أحدهما لم يصدق أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض .

والذين يقصرون عبارة أهل البيت على الأئمة الاثني عشر وأهمهم الزهراء يتخذون هذا الحديث سنداً يرجحون به رأيهم قائلين : إنه لا يمكن أن يراود

بأهل البيت جميع بنى هاشم ، بل هو من العام المخصوص بمن ثبت اختصاصهم بالفضل ، والعلم ، والزهد ، والعفة ، والتزاهة ، من أئمة أهل البيت الظاهر ، وهم الأئمة الاثنا عشر وأهمهم الزهراء النبوة ، ويدللون على ذلك بالإجماع على عدم عصمة من عداهم : لأن غيرهم من بنى هاشم يذنون ويخطئون ، ويجهلون كثيراً من الأحكام . ولا يمتارون من غيرهم . فلا يصح أن يكونوا شركاء القرآن في الأمور المذكورة ، وإنما يتعين أن يكون أهل البيت بعض بنى هاشم لا كلهم ، وهم الأئمة وأهمهم ، رضى الله عنهم .

خصائصها ومناقبها وفضائلها :

١ - قول الرسول صلى الله عليه وسلم إنها بضعة مني أو شجنة مني :
 روى البخارى في صحيحه وبسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبنى » ، وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما فاطمة بضعة مني يرينى ما راها ويؤذنى ما آذاها » ، وفى الإصابة عن الصحيحين عن المسور بن مخرمة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « فاطمة بضعة مني يؤذنى ما آذاها ، ويرينى ما راها » ، وعن صحيح الترمذى : « إنما فاطمة بضعة مني يؤذنى ما آذاها وينصبني ما أنصها » .

وعن المسور : أنه بعث إليه الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على يخطب ابنته ، فقال ما من نسب ولا سبب أحب إلى من نسبك وسبيكم وصهركم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة مني

به عهداً فاطمة رضى الله تعالى عنها ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحنو على الزهراء لضعفها وحزنها ، ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب إليها فقال لها : « إني أريد أن أحولك إلى » ، فقالت : فكلّم حارثة بن النعمان أن يتحول عني - قال رسول الله : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه . فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبي فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تحول فاطمة إليك ، وهذه منارلى ، وهى أسبق بيوت بنى النجار لك ، وإنما أنا ومالى لله ولرسوله . والله يا رسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب إلى من الذى تدع . فقال رسول الله : صدقت . بارك الله عليك . فحولها رسول الله إلى بيت حارثة .

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى « أن بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر ، بينه وبين بيت النبي صلى الله عليه وسلم خوخة . وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى إن ابنى أمسيا عليّين ، فلو نظرت لنا أدمأ نستصبح به . فخرج على إلى السوق فاشتري لهم أدمأ ، وجاء به إلى فاطمة فأستصحت فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل - وذكر كلاماً وقع بينهما ، فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها . »

ولقد سأل على بن أبي طالب رسول الله يوماً فقال : « يا رسول الله أينا أحب إليك أنا أم فاطمة ؟ » فقال عليه الصلاة والسلام : « أنت

أعز على منها ، وهى أحب إلى منك ،

٤ - فاطمة أحب النساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

وفى الاستيعاب : مثلت السيدة عائشة رضى الله عنها أى الناس كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : فاطمة . قيل : فمن الرجال ؟ قالت : زوجها . إن كان ما علمته صَوَّاماً قَوَّاماً . وروى الحاكم فى المستدرک ، وصححه بسنده عن جميع ابن عمير ، قال : دخلت مع أمى على عائشة ، فسمعتها من وراء الحجاب وهى تسألها عن على ، فقالت : تسألينى عن رجل والله ما أعلم رجلاً كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من على ، ولا فى الأرض امرأة كانت أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة .

وعن عائشة رضى الله عنهما قالت : قلت : يا رسول الله ، ما لك إذا قبلت فاطمة جعلت لسانك فى فيها كأنك تريد أن تلعقها عسلاً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنه لما أسرى بي أدخلنى جبريل الجنة فتناولنى تفاحة فأكلتها ، فكلما اشتقت إلى تلك التفاحة قبلت فاطمة فأصبت من رائحتها رائحة تلك التفاحة . وفى رواية : تناولنى منها تفاحة فأكلتها فتحول ذلك نطفة فى صلبى فلما هبطت إلى الأرض واقعت حديجة فحملت بفاطمة ، ففاطمة حوراء إنسية ، فكلما اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتى وفى ذلك يقول الشاعر :

المصطفى جبريل أطعمه تفاحة فى ليلة الإسرا
فتكوت منها لداك غدت بين الورى إنسية حورا

٥ - وهي أصدق الناس لهجة :

عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذى ولدها صلى الله عليه وسلم .

٦ - طهرتها من حيض الآدميات :

عن أسماء رضى الله عنها قالت : قبلت أُمِّي ولدت فاطمة بالحسن فلم أر لها دمًا ، فقلت : يا رسول الله ، إني لم أر لها دمًا في حيض ولا نفاس ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن ابنتي طاهرة مطهرة لا يرى لها دم في طمث ولا ولادة .

٧ - تحريم ذريتها على النار :

عن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن فاطمة حصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار » .

٨ -- ما ظهر لها من الكرامة على الله عز وجل ، وأنها أعز الناس على

أبيها صلى الله عليه وسلم ، ومغفرة الله لها ، وإجراؤها في مجرى مريم ابنة عمران .

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : سألت علي فاطمة ذات

يوم : هل عندك شيء تغذيته ؟ قالت : لا ، والذى أكرم أبي بالنوة

ثأ أصبح عدى شيء أعديكه ، ولا أكلنا بعد شيئاً ، ولا كان لنا شيء

بعدك منذ يومين أو ترك به على بطي ، وعلى ابني هذين ، قال : يا فاطمة ،

ألا أعلمتني حتى أبغيكه شيئاً ، قالت : إني أستحي من الله أن أكلفك

ما لا تقدر عليه . فخرج من عندها واثقاً بالله تعالى ، حسن الظن به ،

فاستقرض ديناراً ، فبينما الدينار في يده أراد أن يتناع لهم ما يصلح لهم .

إذ عرص له المقداد في يوم شديد الحر ، قد لوحته الشمس من فوق .

وآذنه من تحته ، فلما رآه أنكره ، فقال : يا مقداد ، ما أزعجك من رحلك هذه الساعة قال : يا أبا الحسن ، خل سبيلي ، ولا تسألني عما ورائي ، قال : يا بن أخي ، إنه لا يحل لك أن تكتنفي حالك قال أما إذ أبيت فوالذي أكرم محمداً بالنبوة ما أزعجني من رحلي إلا الجهد ، ولقد تركت أهلي ليكون جوعاً ، فلما سمعت بكاء العيال لم تحملني الأرض ، فخرجت مغموماً راكناً رأسي ، فهذه حالتي وقصتي ، فهمت عينا على بالكاء ، حتى بليت دموعي لحيتي ، ثم قال : أحلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك ، ولقد اقترضت ديناراً فهاك ، وأوثرك به على نفسي . فدفع له الديار ورجع حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فصلي الظهر والعصر والمغرب ، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة المغرب مربعل في النصف الأول ، فعمزه برجله ، فسار خلف النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحقه عند باب المسجد ، ثم قال : يا أبا الحسن ، هل عندك شيء تعشنا به ؟ فأطرق على لا يحير جواباً حياءً من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد عرف الحال التي خرج عليها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إما أن تقول لا فنصرف عنك ، أو نعم فنجيء معك ، فقال له : حباً وتكريماً ، اذهب بنا ، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن تعثر عندهم ، فأخذ الرسول بيده فانطلقا حتى دخلا على فاطمة عليها السلام في مصلاها ، وخلفها جفنة تفور دخاناً ، فلما سمعت كلام النبي صلى الله عليه وسلم خرجت من المصلى فسلمت عليه ، وكانت أعز الناس عليه ، فرد عليها السلام ، ومسح بيده على رأسها ، وقال : كيف أميت ؟ عشيًا ، غفر الله لك ،

وقد فعل فأخذت الحقة فوضعتها بين يديه ، فلما نظر على ذلك وشم ريحه ، رمى فاطمة بصره رمية شميماً ، فقالت : ما أشح نظرك وأشدّه ! سبحان الله ! هل أدبت فيما بيني وبينك ما أستوجب به السخطة ؟ قال : وأى ذنب أعظم من ذنب أوصته اليوم ؟ ! أليس عهدي بك اليوم وأنت تحلفين بالله مجتهدة ما طعمت طعاماً يومين ؟ ! فنظرت إلى السماء فقالت : إلهي يعلم ما في سمائه ، ويعلم ما في أرضه . إني لم أقل إلا حقاً . قال : فأنى لك هذا الذي لم أر مثله ، ولم أشم رائحته ، ولم أكل أطيب منه ؟ ! فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم كفّه المباركة بين كتفي على ، ثم هرّه وقال : « يا على ، هذا ثواب الدينار ، وهذا جزاء الدينار ، هذا من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب . » ثم استعبر النبي صلى الله عليه وسلم باكياً وقال : الحمد لله الذي لم يخرجك من الدنيا حتى يجريك يا على في المجرى الذي فيه زكريا ، ويجريك يا فاطمة في المجرى الذي أجرى فيه مريم . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أئى لك هذا ؟ ! »

الرسول والسيدة الزهراء :

خصت السيدة الزهراء من أبيها صلى الله عليه وسلم بأحاديث تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحتصها بمحبته ، ويصفىها مودته ، وأن لها موضعاً من نفسه ، ومكاناً من قلبه ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لو خبر أى بانه تكون وعاء لنسله الطهور لاختر ما اختاره الله . لقد كانت خير بست لأبيها ، كما كانت خير زوجة لزوجها ، وخير أم لأولادها .

١ - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال صلى الله عليه وسلم : خلق الناس من أشجار شتى ، وخلقنا أنا وعلى بن أبي طالب من شجرة واحدة ، فما قولكم في شجرة أنا أصلها ، وفاطمة فرعها وعلى لقاحها ، والحسن والحسين ثمارها ، وشيعتنا أوراقها ؟ ! فمن تعلق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة ، ومن تركها هوى إلى النار .

٢ - وعن ابن عباس أيضاً قال صلى الله عليه وسلم : يا على ، إن فاطمة بضعة مني ، هي نور عيني ، وثمرة فؤادي ، يسوؤني ماساءها ، ويسرني ما سرها ، وإنها أول من يلحقني من أهل بيتي ، فأحسن إليها من بعدى ، والحسن والحسين فهما ابناي وريحانتاي وهما سيدا شباب أهل الجنة ، فليكونا عليك كسمعك وبصرك . ثم رفع صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء فقال : اللهم إني أشهدك أبي محب لمن أحبه ، مغض لمن أبغضه ، سلم لمن سالمه ، حرب لمن حاربه ، عدو لمن عاداه ، ولي لمن والاه .

٣ - وعنه أيضاً ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً ذات يوم ، وعنده على وفاطمة والحسن والحسين فقال : اللهم إني أعلم أن هؤلاء أهل بيتي ، وأكرم الناس على ، فأحب من يحبهم ، وأبغض من يبغضهم ، ووالد من والاهم ، وعاد من عاداهم ، وأعز من أعانهم ، واجعلهم مطهرين من كل رجس ، معصومين من كل ذنب ، وأيدهم بروح القدس منك .

٤ - وعنه أيضاً ، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت فاطمة وهي تبكي ، فقال : ما يبكيك يا فاطمة ، قالت :

بارسول الله ، عبرتني نساء قريش آنفاً ، زعمن أنك زوجتي رجلاً معدماً
لامال له . قال : لا تبكي يا فاطمة ، فوالله ما زوجتك حتى زوجك الله تعالى
من فوق عرشه ، وأشهد على ذلك جبريل وميكائيل .

٥ وقال على رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يا فاطمة إن الله عز وجل يعضب لعضبك ويرضى لرضاك .

٦ - وعنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قل لفاطمة : إني وإياك
وهذين (يعني حسناً وحسباً) وهذا الراقد (يعني علياً) في مكان واحد
يوم القيامة .

٧ وروى الترمذى وغيره عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ،
قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أحبُّ أهلٍ إلى فاطمة .

٨ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : أنا وطمة وعلى والحسن والحسين في حفيرة القدس ،
في قبة بيضاء ، وهي قمة المجد ، وشيعتنا عن يمين الرحمن تبارك وتعالى .

٩ وعن مجاهد رضي الله عنه ، قال : خرج النبي صلى الله عليه
وسلم ، وهو آخذ بيد فاطمة ، فقال : من عرف هذه فقد عرفها ، ومن
لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة مني ، وهي قلبي ، وروحي
التي بين جنبي ، فمن آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى .

١٠ - وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين
في صعيد واحد ، ثم ينادي مناد من بطنان العرش : إن الحليل حل
حلاله يقول : نكسوا رؤوسكم ، وغضوا أنصاركم ، فإن هده فاطمة

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد أن تمر على الصراط . فتمرو معها سبعون ألفاً من الحور العين .

١١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ملكاً من السماء لم يكن رارياً ، فاستأذن ربي في زيارتي . فشرني وأخبرني أن فاطمة سيدة نساء أمتي .

الرسول يضرب بفاطمة المثل :

عندما نزلت الآية الكريمة : (وَانذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) نادى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر قريش اشربوا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف ، لا أغني عنكم من الله شيئاً : يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية بنت عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً .

وخفق قلب فاطمة حناناً وتأثراً ، فهمست تقول : لبيك يا أحب والد وأكرم داع . ثم جمعت نفسها ، وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف مرفوعة الخامة ، مشرقة الأسارير ، وكأنها ازدهاها أن يختارها أبوها النبي من بين أخواتها جميعاً ، بل من بين أهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر أنه لا يغني من الله شيئاً عن أعز الناس عنده ، وأحبه إليهم ، وأدناهم منه . لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته ، ثم ببني عبد مناف عشيرته الأقربين ، عمه العباس ، وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هي آخر من يتخذه الرسول مثلاً في ذلك الموقف الجليل ، فعندها إذن ينتهي أقصى ما يبلغه صلى

الله عليه وسلم في العظة والاعتبار . وإذا كان محمد لا يغني عن بنته فاطمة من الله شيئاً فهل يطعم غيرها ، كائناً من كان في أن يغني عنه أحد من الله شيئاً^(١) .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يضرب النبي فيها المثل بابنته فاطمة تأكيداً لما يريد نشره في أمته من الحق ، فلقد حدثوا أن امرأة من قريش سرقت ، بعد أن أسلمت ، وبلغ الرسول أمرها ، فأشفقت قريش أن تقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا أسامة بن زيد ليشفع فيها ، وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل قال صلى الله عليه وسلم : « لا تكلمني يا أسامة فإن الحدود إذا انتهت إلى فليس لها ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها »^(٢)

زوجها :

على بن أبي طالب الذي ولد بمكة ، داخل البيت الحرام ، في يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل ، قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة . ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله سواه ، وقد كرم الله وجهه عن السجود للأصنام وترى عند النبي صلى الله عليه وسلم .

أسلم على يد الرسول صبيّاً قبل أن تمس قلبه عقيدة سابقة . والإجماع

(١) مات النبي : المذكورة ست اشاطي

(٢) لإصابة

على أن علياً كان أول من آمن^(١) من الأحداث الذين لم يبتغوا الحلم .
ويقول ابن عباس : « عليٌّ أربع خصال ليست لأحد غيره ، هو أول
عربي وعجمي صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي كان
لواؤه معه في كل زحف ، وهو الذي صبر معه يوم قرغيره ، وهو الذي غسله
وأدخله قبره » .

أما أمه فهي فاطمة بنت أسد ، وهي أول هاشمية ولدت حيفة ،
وهي أم سائر وند أبي طالب ، وكان عليٌّ أصغر بناتها . وكانت في مقدمة
النساء اللاتي بايعن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد سارت سيرة حديجة
رضي الله عنها . وكانت تعطف على روح ولدها (السيدة فاطمة الزهراء)
عطف الأمهات على أولاد أكبادهن ، وكانت تعاونها في عملها ،
وتساعدنها في أمورها . ولقد قال علي رضي الله عنه لأمه فاطمة بنت أسد :
« اكثري فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سقاية الماء والذهب
في الحاجة ، وهي تكفيك من الداخل الضحن والعجن ، فكانت

(١) على ابن أبي طالب أول الصبيان إسلاماً ، وأبو بكر أول الرجال إسلاماً ، ثم يليه عثمان
ابن عفان والزيبر بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وظلمة بن عبد الله ، والأرقم بن أبي الأرقم ،
وعبد الله بن مسعود ، وسعيد بن زيد ، وسعد بن أبي وقاص ، ومسعود بن ربيعة ، وجعفر بن أبي
طالب ، وصيب الرومي ، وزيد بن سائرته ، وكلب بن عمرو ، وخباب بن الأثر ، وعامر بن فهيرة ،
ومصعب بن عمير ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن جحش ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن
الجراح ، وعثة بن غزوان ، وأبو حزيمة بن عتبة ، وبلال بن رباح ، وخالد بن سعيد ، وعمر بن سعيد
وعياش بن أبي ربيعة ، وعامر بن ربيعة ، وبهم بن عبد الله ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن مظعون ،
وقد مة بن مظعون . والسائب بن مظعون ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وعمار بن ياسر ، وحمزة بن عبد
المطلب . وعبيدة بن الحارث . وعامر بن أوف . وقاص ، والسائب بن عثمان بن مظعون

بارة بها ، حانية عليها ، مدللة لأولادها ، عاطفة عليهم . ولما توفيت كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه ، وأمر من يحفر قبرها ، فلما بلغوا لحدها حفره بيده واضطجع فيه ، وقال : اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخلها . فقيل يا رسول الله رأيناك صنعت شيئا لم تكن تصنعه بأحد مثلها فقال : « ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة ، واضطجعت في قبرها ليوسع الله عليها . وتأمين ضغطة القبر . إنها كانت من أحسن خلق الله صنعا إلى بعد أبي طالب » . وكان على رضى الله عنه يكنى أبا الحسن وأبا الحسين وأبا النورين وأبا تراب ، ويلقب بالمرتضى وحيدرة وأمير المؤمنين ، واختص دون الخلفاء جميعاً بلقب الإمام ، لأن جميع الشروط التي يجب أن تتوافر في الإمام ، وفي مقدمتها العلم ، متوفرة في سيدنا على رضى الله عنه . وسأوفى هذا الموضوع حقه إن شاء الله في الجزء الخاص بالإمام على . ونقول هنا إن عبد الله بن عباس كان تلميذاً للإمام ، وعرف ابن عباس بالتبحر في العلم حتى وصف بأنه « حبر الأمة وترجمان القرآن » ، ولما سئل ابن عباس : « أين علمك من علم ابن عمك ؟ » قال : كنيسة قطرة من المطر إلى البحر المحيط !

أما شمائله فقد دخل ضرار بن ضمرة الكنانى على معاوية ، فقال صف لى علياً قال : أعفنى . قال : لتصفته . قال : أما إذا كان لا بد من وصفه فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة ، طويل الفكرة .

يقلب كَفَّهُ ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام
 . جش ، وكان فينا كأحدنا ، يدنينا إذا أتينا ، ويحيينا إذا سألناه ،
 ويليت إذا دعواناه ، وينشأ إذا استنبأناه . ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه
 منا لا نكاد نكلمه هية له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم
 أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا بطمع القوى في باطله ، ولا يئاس
 الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه - وقد أرحى الليل
 سدوله ، وغارت نجومه - قديضاً على لحبته ، يتململ تملل السلم ،
 ويكي بكاء الحزين ، فكأنني أسمع الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا هيات ،
 يتضرع إليه ثم يقول : يادنيا غرّى غبرى ، ألى تعرضت أم إلى تشوفت ؟
 هيات ! قد بنتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك كبير ،
 وعيشك حقير ، آه ، آه ! من قلة الراد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! .
 فبكى معاوية .

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : كان على إذا ورد عليه مال
 لم يبق منه شيئاً إلا قسمه ، ولا يترك في بيت المال منه إلا ما يعجز عن
 قسمته في يومه ذلك ، ويقول : « يادنيا غرّى غبرى » ولم يكن يستأثر
 من الشيء بشيء ، ولا يخص به حميماً ولا قريباً ، ولا يخص بالولايات
 إلا أهل الديانات والأمانات ، وإذا بلغه عن أحد خيانة كتب إليه : « قد جاءتك
 موعظة من ربك ، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تحسوا الناس
 أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين .
 وما أن عليكم بحفيظ ، إذا أتاك كتابي هذا فاحفظ بما في يديك
 من عهد حتى نبعث إليك من يتسلمه منك . ثم يرفع طرفه إلى السماء

ويقول : « اللهم إني أعلم أنك تعلم أنني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك » .
ويقول الشريف الرضي في مقدمة « نهج البلاغة » في علي رضي
الله عنه : « ومن عجائب التي انمرد بها ، وأمن المشاركة فيها ، أن كلامه
في الزهد والمواعظ إذا تأمله المتأمل ، وحلج من قلبه أن كلام مثله ممن
عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك في
أنه من كلام من لا حظ له في غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ،
قد قنع في كسريته ، أو انقطع في سفح جبل ، لا يسمع إلا حسه ،
ولا يرى إلا نفسه ، ولا يكاد يوقن أنه كلام من يغمس في الحرب مصلاً
سيفه فيقط الرقاب ، ويعدل الأبطال ، ويعود به يطف دماً ، ويقطر
مهجاً ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبدل الأبدال . وهذه من
فضائل العجبية ، وخصائصه اللطيفة الغريبة ، التي جمع بها بين الأضداد ،
وألّف بين الأشتات . وكثيراً ما أذكر الإخوان بها ، وأستخرج عمهم
منها ، وهي موضع للعبرة بها ، والفكرة فيها » .

وقد صاحب الحلية في ترجمته : علي بن أبي طالب ، وسيد القوم ،
ومحب المشهود ، ومحبوب المعبود ، باب مدينة العلم والعلوم ، ورأس
المخاطبات ، ومستنير الإشارات ، راية المهتدين ، ونور المطيعين ، وولي
المتقين ، وإمام العادلين ، أقدمهم إجابة وإيماناً ، وأقومهم قضية وإيقاناً ،
وأعظمهم حِلماً ، وأوفرهم علماً .

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قدوة المتقين ، وريّة العارفين ،
المنبئ عن حقائق التوحيد ، المشير إلى لوازم علم التوحيد ، صاحب القلب
العقول ، واللسان السوول ، والأذن الواعية ، والمهود الوافية ، فقهاء عيون

الفتن ، ووقء من فتون المحن ، فدفع الساكنين ، وقمع القاسطين ، ودمع
الدارقين .

أخشى أن أسترسل في الكتابة على الإمام على بن أبي طالب ، مع أني
سأكتب عنه إن شاء الله جزءاً خاصاً به ، ولكي أود أن أبين للقارئ
الكريم من هو الرجل العظيم الذي اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم
رجلاً للزهاء ، وقد اختاره لأنه تربى في حجره صلى الله عليه وسلم ،
وكما بيئت كان السابق إلى الإسلام ، وقد بات على فراش الرسول صلى
الله عليه وسلم ليلة لحة ، وقد قدمه عند الهجرة في أداء الأمانات ورد
الودع وقضاء الديون ، ثم مؤاخاة الرسول صلى الله عليه وسلم له ، وأنه
صاحب رأيته ، وما شهد عن شجاعته وقوته في سبيل الله تعالى ، وفصاحته
لتي لا تدرى ، وعلمه المنقطع لنظير ، وعروته بفرائض ولقضاء وألقب ،
وما أفاء الله عليه من حافظة ذاكرة ، وذاكرة وعية ، وزهده في دنياه ،
وعادته وخوفه من الله تعالى ، وعدالته وقناعته ، وسخائه وجروده ، وحس
خلقه ، وطلاقة وجهه ، وأصانة رأيه ، وحس تدبيره ، وشدة في ذات
الله تعالى ، إلى ما ورد أنه في كل مؤمن ، وأنه من النبي صلى الله عليه
وسلم بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعده ، وأنه من آل البيت في
تظهر وتباهية ، وأخيراً إنه أحب شخصية إلى الرسول صلى الله عليه
وسلم .

السلالة الطاهرة

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون السيدة الزهراء هي الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الشرف من آل البيت .
والذرية الطاهرة من فاطمة هي ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأصدق شاهد على ذلك تجده في سيرة النبي نفسه صلى الله عليه وسلم ،
فقد كان يبذل لأولاد الزهراء ، وللحسن والحسين عليهما السلام على الخصوص ، ما كان لا يقصر عما يبذله أي أب تجاه أولاده .

رزقت السيدة الزهراء رضي الله عنها بنصيب صالح من البنين والبنات :
الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . وكان أسعد ما يسعدون به عطف الأب الأكبر الذي كان يوالهم به جميعاً ، ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام في محتدم الدعوة والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها في تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخاً محفوظاً في الصدور والأوراق ، فلما أذيع نبأ ولادة الصديقة بالمولود الجديد (الإمام الحسن) غمرت موجات من السرور والفرح قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، فسارع إلى بيت ابنته منزل الإمام على ، ونادى : يا أسماء هاتيني ابني

فأسرعت أسماء ودفعته إليه في خرقة صفراء .

فقال : « ألم أعهد إليكم ألا تلقوا المولود في خرقة صفراء » .

وأذن صلى الله عليه وسلم في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ، فكان أول صوت سمعه المولود الجديد هو صوت جده الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت

أنشودة هذا الصوت « الله أكبر لا إله إلا الله » والتفت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإمام على أمير المؤمنين وقال له : « هل سميت الوليد المبارك ؟ » فأجابه الإمام : « ما كنت لأسبقك يا رسول الله ». فسماه الرسول عليه الصلاة والسلام حسناً .

وهكذا عند مولد الحسين ، فقد سأل الرسول صلى الله عليه وسلم الإمام علياً : أى شيء سميت ابني ؟

قال ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله ، وقد كنت أحب أن أسميه حرباً . فقال الرسول : سمّه حسناً .

وكذلك عند مولد المحسن - وقد مات وهو صغير .

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي صلى الله عليه وسلم ، والرسول يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان :
حُرْقَةُ (١) حُرْقَةُ .

وربما شوهد النبي عليه الصلاة والسلام ساجداً وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه ، فيتأني في صلاته ، وبطيل السجدة ، لكيلا يزحزحه عن مركبه . وفي إحدى هذه السجعات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : المنطبة مطيتك - وفي رواية أخرى أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً يمشي على أربع وعلى ظهره الحسن والحسين ، وهو يقول : « نَعَمْ الرَّاكِبَانِ أَتُنَا ، وَنَعَمْ الْجَمَلُ جَمَلُكُمَا »

بل ربما كان على المنبر ، فقليل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران

فيسقه حنانه إليهما ، وينزل من المنبر ليحملهما وهو يقول : « صدق الله العظيم . (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) » وفي هذا ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يعدّهما ولديّه .

وكان إذا سمع أحدهما يبكي نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا الطفل ؟ ألا تعلمين أن بكاءه يؤذيني ؟ »

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين . ويتولى خدمة الأطفال بنفسه ، وأبواه قاعدان . ففى إحدى هذه الليالى سمع الحسن يستقى ، فقام صلوات الله عليه إلى قرية : فجعل يعصرها فى القدح ، ثم جعل يععبه ، فتناول الحسين ، فمعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كأنه أحب إليك ؟ قال : إنما استسقى أولاً . وقد بلغهم جميعاً فى برد واحد ويقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد » .

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعر عليهم جميعاً من أبوة الأب الصغير (١) .
روى الترمذى من حديث أسامة بن زيد قال : طرقت النبی صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة ، فقال : « هذان ابنای وابنتی اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » .

لذلك يقال لكل من لسطين الحسن والحسين : يا بن المصطفى ، وكان رضوان الله عليهما يعتزّن بأبوته صلى الله عليه وسلم ويهتمان به . فيقول كل منهما له صلى الله عليه وسلم : « يا أبت ! فإذا هتف الحسن بأبيه على قل له يا أبا الحسن . وإذا هتف الحسين بأبيه قال له : يا أبا الحسن . فما انتقل أحدهما صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كانا

يقولان لأبيهما : « يا أبت » . كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحسن والحسين إنهما سيدا شباب أهل الجنة . ولذلك كانت أمهما تناديهما فتقول يا حسن مرة ، ويا حسين مرة أخرى .

أما السيدة زينب فقد سماها الرسول صلى الله عليه وسلم إحياء لذكرى استه الراحلة (زينب) التي ماتت في طريقها إلى دار الهجرة عندما نحسها أحد المشركين في بطنها . وكانت حاملاً فسقط حملها ، وذلك بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها أبي العاص من الربيع .

وزينب هي البرعم الثالث من براعم الزهراء . ولما ولدت أقلل المهثون من بني هاشم والصحابة يذكرون هذه الزهرة المفتحة في بيت الرسول . تشر في المهد غير المنت الطيب ، وتلوح في طلعته المشرقة ملامح آباء وأجدادها كرام .

وبرمق زينب وهي تدرج في ساحة البيت الشريف محوطة برعاية خاصة من جدها العظيم وعطف سابع من آله الكرام ، فراها على البعد صبية حنة في حضنة الزهراء ، تنق عنها الدروس الأولى في الحياة ، فإذا جاوزت دور الحضنة ألفت أمها أعظم من أنجبتهم الجزيرة في زمانها من المعلمين : جدها صاحب الرسالة ، وأبها لفرس أمير البيان ، والعلماء والفقهاء من الصحابة الكرام . ولم تطفز صبية من لداتها فيما نحسب - مثل ما ظفرت به هي في تلك البيئة الرقيقة من تربية عالية ، وكان هذا كله بحيث يرضى « زينب » في صباها ، ويتيح لنا أن نراها مرحلة مزهوة . ولكنها لا تكاد تشب عن الطوق حتى يقال إنها عرفت النبوة الأليمة . قيل إنها كانت تلوشيثاً من القرآن الكريم بمسمع من أبيها .

فبدأ لها أن تسأله عن تفسير بعض الآيات ففعل ، ثم استطرد - متأثراً
بذكائها اللامع - بلمح إلى ما ينتظرها في مستقبل أيامها من دور ذي خطر .
ولشد ما كانت دهشته حين قالت له زينب في جد رصين :

أعرف ذلك يا أبي . . لقد أخبرتني به أمي ، كما تهيئني لغدى .
ولم يجد الأب ما يقول ، فأطرق صامتاً ، وقلبه يخفق رحمة وحناناً (١) .

وما إن بلغت زينب مبلغ الزواج حتى اختار لها أبوها بين المتقدمين
لخطبتها من بنى هاشم وقريش ابن أخيه « عبد الله بن جعفر بن أبي طالب »
الذى ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبوه إليها ، فكان أول من ولد من المسلمين .
لقد كان سيداً شهماً ، كريم النفس ، سخي اليد ، أسرف على نفسه
في الجود حتى كان لا يبالي أن يهلك ماله أو أن يصل إلى أعدائه . وجعفر بن أبي
طالب أحد السابقين إلى الإسلام . وكان أبوهريرة يقول ما احتدى النعال ،
ولا ركب المطايا ، ولا وطئ التراب منذ رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل
من جعفر بن أبي طالب . رضى الله عنه .

وأنتم الزواج المبارك ثمرته ، فولدت له زينب أربعة بنين : علياً ومحمداً
وعوناً والعباس ، كما ولدت له بنتين . ولقد كان أولادها الأربعة معها عندما
سارت في ركب أخيها الحسين إلى كربلاء . وقد أخذ الضعف والعجز
من أبيهم مأخذه ، فتي في المدينة ، وهكذا استشهدوا بين يدي خالهم
العظيم على أرض الظف .

إن من يتصفح حياة عقيلة بنى هاشم « زينب » لا يستكثر عليها
القول بأن النهضة التي نهضها الحسين عليه السلام بوجه الكفر والارتداد

(١) نطفة كربلاء ، لذكوره ست نشاطي

عن دين الله كانت بتراء لو لم تبدأ « زينب » مهمتها من بعد معركة الطف أخذت يزمام الأمر في كل المراحل . وعلى عاتقها فقط كتب الخلود لنهضة الحسين ، فكانت حلقة للوصل بين « الطف » والأجيال اللاحقة .

ولعل السر في ذلك أن يزيد كان قد عمى على أغلب الناس بأن الجيش الذي بعثه إنما هو لمحاربة بعض الخوارج في العراق ، وأن الرؤوس التي حُمِلت إليه إنما هي رؤوس الخارجين على ربة الطاعة والشاقين عصا المسلمين . ولكن « زينب » أوضحت للجمهور في الكوفة والشام وفي الطريق أنها والساء اللاتي معها بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصقت الخزي والعارييريد ومناصريه في ارتكابه الجريمة الشنعاء .

لقد خطبت في الكوفة خطبة بليغة ، وخطبت في الشام في مجلس يريد خطبة أخرى عظيمة كان لها أبلغ الأثر في إيقاف الجماهير ، وتوجيه أنظارهم إلى الحقيقة التي حاول يزيد عبثاً إخفاءها وإسدال الستار عليها . وكانت هي المسئلة الوحيدة عن عيال الحسين والأنصار الذين أوصاتهم إلى المدينة المنورة .

استقلت مدينة الرسول هذا الركب الحزين وليس معه رجل إلا « علي بن الحسين السجاد » زين العابدين ، الذي كتب له البقاء لتستمر الإمامة بوجوده وتنقل في صلبه .

لقد ودعت المدينة هذا الركب بقيادة الحسين عليه السلام ومعه بنو هاشم ، وما هم أولاء جمعين وقد تركوا الشهداء جثثاً بلا رؤوس على أرض الطف ، يحيطون أرواح مضطرب الشرف والإباء والتضحية في سبيل الدين ^(١) .

(١) نهره ، للأستاذ فيصل نحى

ومن استغاثاتها ما كانت تترنمه به كثيراً :

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم بسر آتى من بعد عسر وفرج كربة القلب الشجى
وكم أمر تنوء به صاححاً فتأتبك المسرة بالعشى
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً فتق بالواحد الفرد العلى
توصل بالنبي فكل خطب من إذا توصل بالنبي
ولا تجزع إذا ما ناب خطب فكم لله من لطف خفى
وسأعود إن شاء الله إلى هذه السيرة العطرة في السلسلة التي أزمع إن شاء الله إخراجها .

أما السيدة أم كنثوم فقد ولدتها الزهراء عليها السلام بعد زيب وقد تزوجها عمر بن الخطاب فولدت له ريذاً .
أما الابن الخامس للزهراء فهو المحسن ، ولم يقدر له أن يعيش .
هذه هي السلالة الطاهرة ، أهل البيت بحق .

الزهراء سيدة نساء العالمين

١ - عن علي بن أبي طالب : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على علي وفاطمة ، وأحد بعضادتي الباب ، وقال : « السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة ، وموضع الرسالة ، ومزحل الملائكة ، يا بنية إن الله سبحانه وتعالى اطلع على أهل الأرض اطلاعه ، فاختار أباك فجعله نبياً ، ثم اطلع الثانية فاختار منهم زوجك علياً ، فجعله لي أحاً ووصياً . ثم اطلع الثالثة فاختارك وأمك فجعلكما سيدتي نساء العالمين . ثم اطلع الرابعة فاختار ابنك فجعلهما سيدتي شباب أهل الجنة ، فقال العرش : أي ربي ، ابنك ، وابن وصي نبيك ، ربي بهما ، فهما يوم القيامة في صفتي العرش بمنزلة الشفيعين من الوجه » .

٢ - وفي الحلية عن عائشة رضي الله عنهما ، قالت : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه ، وجاءت فاطمة تمشي ما تحطئ مشيتها من مشية النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فلما رآها ، قال : مرحباً بابنتي . فأقعدها عن يمينه أو عن يساره . ثم سارها بشيء فبكت ، فقلت لها أنا من بين نسائه : قد حصصك رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيننا بالسر وأنت تكفين ؟ ثم سارها النبي صلى الله عليه وسلم فضحكت ، فسألته فقالت : ما كنت لأفشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره . فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم سألتها ، فقالت : « أما يكائي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : إن جبريل عليه السلام كان يعرض على القرآن

كل عام مرة فعرضه العام مرتين ، ولا أرى أجلى إلا قد اقترب ، فبكيت ،
ثم قال لى : اتقى الله واصبرى ، فإنى أنا نعم السلف لك . ثم قال : يا فاطمة ،
أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ، أو سيدة نساء هذه الأمة ؟
فضحكت .

٣ - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ملكاً من السماء لم يكن زارنى ، فاستأذن ربى فى زيارتى ، فبشرنى
وأخبرنى أن فاطمة سيدة نساء أمتى .

٤ - وروى ابن عبد البر أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : يا بنية ،
ألا ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟ قالت : يا أبت ، فأين مريم ؟ قال :
تلك سيدة نساء عالمها .

٥ - وروى الصادق فى الأمالى بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
أنه قال فى فاطمة : « وإنها لسيدة نساء العالمين » ، فقل ، يا رسول الله ،
أهى سيدة نساء عالمها ؟ فقال : تلك مريم ابنة عمران فأما ابنتى فاطمة فهى
سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين . وقد صرح بأفضليتها على سائر
النساء حتى السيدة مريم ، كثير من العلماء المحققين ، منهم التقي السبكي
والجلال السيوطى والبدر الزركشى والتقى المقرئى . وعبارة السبكي حين
سئل عن ذلك : الذى نختاره أن فاطمة بنت محمد أفضل . وسئل عن
مثل ذلك ابن أبى داود فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فاطمة
بضعة منى ، ولا أعدل ببضعة رسول الله أحداً^(١) .

٦ - وعن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو

(١) الشرف المؤبد لآل محمد ، للسيد يوسف بن إسماعيل السبكي .

في مرضه الذي توفي فيه : يا فاطمة ، ألا ترضين أن تكوفي سيدة نساء العالمين ،
وسيدة نساء هذه الأمة ، وسيدة نساء المؤمنين ؟

٧ - وعن عمران بن حصين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال
لفاطمة : أما ترضين أن تكوفي سيدة نساء العالمين ؟ قالت : فأين مريم
ابنة عمران ؟ قال لها : أي بنية ، تلك سيدة نساء عالمها . وأنت سيدة
نساء العالمين .

٨ - وأخيراً يقول المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد : « في كل
دين صورة للأئمة الكاملة المقدسة يتخضع بتقديسها المؤمنين كأنما هي آية
الله فيها خلق من ذكر وأنثى ، فإذا تقلست في المسيحية صورة مريم العذراء ،
ففي الإسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول » .

روايتها الحديث :

أخذت السيدة الزهراء عن أبيها الكثير من الأحاديث ، بما تسمعه
منه ، أو ما كان يأمر بكتابته لها . وقد أخذ عنها ابنها الحسن والحسين
وأبوهما علي وحفيدها فاطمة بنت الحسين مرسلًا ، وعائشة وأم سلمة وأنس
ابن مالك وسلمى أم رافع رضي الله عنهم .

وقد ساعدها على ذلك أنها أملت بكثير من علوم القرآن ، وأحاطت
بأمور من الشرائع السابقة ، وكانت تعرف القراءة والكتابة ، وقد فطمها
الله بالعلم ، وكان أبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم يستكتب لها الصحف
التي تسترشد بها في أمر دينها ، وتبصرها بأمور دنيها .

فالسيدة فاطمة من أهل بيت اتقوا الله وعلمهم الله . وصلاً^١ أول أن أذكر

بعض ما روته عن أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم :

١ - عن سليمان بن أبي سليمان ، عن أمه أم سليمان ، قالت : دخلت على عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن لحوم الأصاحي ، فقالت : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عنها ، ثم رخص فيها . قدم علي بن أبي طالب من سفر ، فأنته فاطمة بلحم من ضحاياها ، فقال أو لم ينه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : إنه قد رخص فيها . قالت : فدخل عليّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال له : كلها من ذى الحجة إلى ذى الحجة .

٢ - وعن فاطمة بنت الحسين عن جدتها فاطمة الزهراء ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، وقال : اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ، ثم قال : اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك .

٣ - وعن فاطمة بنت الحسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد ، قال : بسم الله والسلام على رسول الله ، اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك

٤ - وعن أبيها أيضاً عن جدتها فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، ثم قال : اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ، وقال : اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك .

٥ - وعن علي عن فاطمة رضي الله عنهما قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حبيبة أبيها ، كل مسكر حرام ، وكل مسكر خمر .

٦ - وعن فاطمة رضي الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : السلام عليك يا أبت ، فقال : وعليك السلام يا بنية ، فقلت : والله ما أضح يا نبي الله في بيت علي حبة طعام ، ولا دخل بين شفتيه طعام منذ خمس ، ولا أصبحت له ثاغية ولا راغية ، ولا أضح في بيته سفة ولا هفة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ادني مني ، فدنوت ، فقال : أدخل يدك بين ظهري وثوبي . فإذا حجر بين كفي النبي صلى الله عليه وسلم مربوط إلى صدره ، فصاحت فاطمة صيحة شديدة ، فقال لها : ما أوقدت في بيوت آل محمد نار منذ شهر . ثم قال صلى الله عليه وسلم : أتدريين ما منزلة علي ؟ إنه كفائي أمرى وهو ابن اثني عشرة سنة ، وضرب بين يدي بالسيف وهو ابن ست عشرة سنة ، وقتل الأبطال وهو ابن تسع عشرة سنة ، وفرج همومي وهو ابن عشرين سنة ، ورفع باب خير وهو ابن نيف وعشرين ، وكان لا يرفعه خمسون رجلا . فأشرق وجه فاطمة ، ثم أتت علياً فإذا البيت قد أثار بنور وجهها ، فقال لها : يا بنة محمد ، لقد خرجت من عندي ووجهك على غير هذه الحال ، فقالت : إنا النبي صلى الله عليه وسلم حدثني بفضلك ، فما تما لك حتى جئتك .

٧ - وعن الحسين رضي الله عنه ، عن أمه فاطمة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والبخل ، فإنه عاهة لا تكون في كريم ، إياك والبخل ، فإنه شجرة في النار وأغصنها في الدنيا ، فمن

تعلق بعض من أغصانها أدخله النار ، وعليك بالسقاء ، فإن السقاء شجرة من شجر الجنة ، أغصانها متدلّية إلى الأرض ، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة .

٨ - وعن الحسين ، عن فاطمة رضى الله عنها ، أنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن في الجمعة ساعة لا يوفقها رجل مسلم يسأل الله عز وجل فيها خيراً إلا أعطاه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، أى ساعة هي ؟ قال : إذا تدلّ نصف عين الشمس للغروب ، قال : وكانت فاطمة رضى الله عنها تقول لغلامها : اصعد على الطح ، فإن رأيت نصف عين الشمس قد تدلى للغروب فأعلمنى ، حتى أدعرو .

٩ - وعن فاطمة الصغرى بنت الحسين رضى الله عنهما ، عن أبيها عن جدتها فاطمة الكبرى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدفن من ولدى سبعة بشاطئ القرات ، لم يلفهم الأولون ، ولم يدركهم الآخرون .

١٠ - وعن ابن عساكر بسنده ، عن فاطمة البتول بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شرار أمتي الذين غدوا بالنعم ، الدين يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون في الكلام .

١١ - وعن فاطمة الصغرى عن أبيها ، عن فاطمة الكبرى رضى الله عنهم ، قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : لكل نبي عصاة يتمون إليه ، وإن بنى فاطمة عصيتي التي إليها تنمى .

١٢ - وفي دلائل الإمامة بسنده ، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنها أتت رسول الله بالحسن والحسين ، في مرضه الذي توفى فيه ،
فقلت : يا رسول الله ، إن هذين لم تورتها شيئاً ، فقال : أما الحسن فله
هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فله جرأتى وجودى .

هجرتها :

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة نزل في بني عمرو
ابن عوف بقاء ، فأراداه صاحبه على دخول المدينة ، فقال : ما أنا بداحلها
حتى يقدم ابن عمى وابنتى ، يعنى علياً وفاطمة رضى الله عنهما .

ثم كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي رضى الله عنه مع أبي
واقد الليثى يأمره بالمسير إليه ، فلما أتاه الكتاب تهيأ للخروج ، وأمر من
كان معه من ضعفاء المؤمنين أن يتسللوا ليلاً إلى ذى طوى ، وخرج على
بالقواطم . وهن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه فاطمة
بنت أسد ، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، رضى الله عنهن . وتبعهم
أيمن بن أم أيمن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو واقد الذى جاء
بالكتاب ، فجعل أبو واقد يسوق ، الرواحل سوقاً حثيثاً ، فقال على رضى
الله عنه : رفقا بالسوة يا أبا واقد ، إنهن من الضعائف . قال : إني أخاف
أن يدركنا المطلب . فقال على رضى الله عنه : أزعج عليك (أى لا تحف) ،
فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : يا على إنهم لن يصلوا إليك
بما تكرهه . ثم جعل على رضى الله عنه يسوق بهن سوقاً رقيقاً وهو يرتجز
ويقول :

ليس إلا الله فارفع ظنك
يكفيك رب الناس ما أهمك

وسار على رضى الله عنه . فلما قارب ضحنان (وهو منزل بين مكة والمدينة ، أو جبيل على بريد من مكة ، وهناك العمم ، فى أسفل مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم) أدركه الطلب ، وهم ثمانية فرسان ملثمون ، ومعهم مولى لحرب بن أمية اسمه جناح ، فقال على رضى الله عنه لأيمن وأبي واقد : أنيحا الإبل واعقلاها . وتقدم فأزل النسوة ، ودنا القوم ، فاستقبلهم على رضى الله عنه ، فقالوا : ظننت أنك يا غدار ناج بالنسوة ؟ ! ارجع لا أبا لك ! قال : فإن لم أفعل ؟ قالوا : لترجعن راعماً ، أو لترجعن بأكثرك شعراً (أى رأسك) ، وأهون بك من هالك . ودنا القوارس من المطايا ليثيروها ، فحال على رضى الله عنه بينهم وبينها ، فأهوى له جناح بسيفه ، فراغ على رضى الله عنه عن ضربته ، وضربه ضربة على عاتقه فقدته صفيين حتى وصل السيف إلى كتف فرسه ، وثد على أصحابه وهو على قدميه شدة ضيغم وهو يرتجرج ويقول :

خلوا سبيل الجاهد المجاهد آليت لا أعبد غير الواحد
فتفرق القوم عنه ، وقالوا : احسن نفسك يا ابن أبي طالب . قال : فإني منطلق إلى أخى وابن عمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن سره أن أفرى لحمة وأريق دمه فليدن منى ثم أقبل على أيمن وأبي واقد وقال لهما : أطلقا مطاياكما . ثم سار ظافراً قاهراً حتى نزل منزلاً بعد ضحنان ، فلبث فيها يومه وليله . ولحق به نفر من المستضعفين من المؤمنين . فيهم أم أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبات ليلته تلك هو ومن معه طوراً يذكر الله تعالى ، وطوراً يصلون لله عز وجل قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، حتى طلع الفجر ، فصلى بهم صلاة الفجر ، ثم ساروا لا يفترقون عن ذكر

لله تعالى . وهكذا دواليك في نهرهم وبياضهم حتى قدموا المدينة ، وقد نزل
 الوحي بما كان من شأنهم قبل قدومهم بقوله تعالى : (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ
 قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُسُوبِهِمْ) إلى قوله تعالى : (فَسُحِّبَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي
 لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرْ أَوْ أُنْتَبِىَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
 وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا بِسَبِيلٍ وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
 وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
 الثَّوَابِ) .

وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (وَمَنْ لَّائِسَ مِنْ يَشِيرَى
 نَفْسُهُ أَتَيْتَهُ مَرْصَادَ اللَّهِ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ) . وقد فرح المصطفى صلى الله
 عليه وسلم تلقيا الزهراء رضى الله عنها ، وعانقها ، وقبلها ، ثم أخذ بيد على
 رضى الله عنه ، وقال : هذا أخى ووارث علمى ، وهو معى فى الجنة فى
 قصرى مع ابنتى الزهراء .

ونزلت فاطمة رضى الله عنها منزلا كريما على أم أيوب الأنصارية ،
 امرأة أبي أيوب الأنصارى ، وهى من الحرح وما كانت تعرف إلا
 بكنيتها ، وهى بنت قيس بن عمرو بن امرئ القيس ، وروحها أبو أيوب
 الأنصارى مشهور بكنيته ، واسمه خالد بن زيد البحارى الأنصارى ، شهد
 العقبة ويدرأ وأحدا ولخندق وناشر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، وكان مع على رضى الله عنه ، ومن خاصته ، وشهد معه الجمل وصفين ،
 وكان على مقدمة يوم النهروان ، وقد لزم الجهاد فغر أيام معاوية أرض الروم
 مع يزيد بن معاوية ، فمرض أبو أيوب فعاده يزيد ، فدخل عليه ، وقال
 له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتى إذا مات فاركب ثم اسع فى أرض العدو

ما وجدت مساعاً فادفني ، ثم ارجع . فتوفى ، ففعل يزيد وحيشه ذلك ، ودفنوه بالقرب من القسطنطينية سنة إحدى وخمسين ، وقبره يستسقون به ، ويعودون برحانه ، وهو معروف بإحابة الدعاء . وعندما فتحت القسطنطينية على يد الأتراك سنة ٨٥٧ بقيادة السلطان محمد بن مراد ، أو محمد الفاتح . بو على ضريحه قبة ، وأقاموا إلى جانبه مسجداً كانوا يبائعون فيه سلاطين آل عثمان ، حيث يقلد السلطان سيف عثمان مؤسس الدولة العثمانية من يد إمام مسجد أبي أيوب الأنصارى رضى الله عنه .

وقد نزل النبي صلى الله عليه وسلم أول ما نزل في داره . ولما بركت ناقته صلى الله عليه وسلم على باب أبي أيوب خرج جوار من بني النجار يضرن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حُدا محمد بن بشار
وما رثي يوم كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أضاء من المدينة كل شيء ، وكان مقامه صلى الله عليه وسلم بدار أبي أيوب قرابة سبعة أشهر ، أقامت معه فيها بنته فاطمة رضى الله عنها ، أو في أخرها بعد هجرتها .

وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة القرشية العامرية بعد خديجة ، واتخذ لها داراً بالمدينة ، فانتقل هو وفاطمة رضى الله عنها إلى تلك الدار ، فكانت سودة تنولها وتقوم بحاجتها .

ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بنت أمية القرشية المخزومية ، فانتقلت فاطمة إلى بيتها . وقالت أم سلمة رضى الله عنها تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقُوض إلى أمر ابنته فاطمة ، فكانت أودها

وأدناها ، وكانت والله آدب منى ، وأعرف بالأشياء كلها إلى أن بنى بها على رضى الله عنه ، فانتقل بها إلى بيت مستقل فى موضع الزور مخرج النبي صلى الله عليه وسلم

وكان السلف الصالح ومن اقتدى بهم لا يسرون حظهم من الصلاة إلى الأسطوانة التى خلف الأسطوانة المواجهة للزور ، فإنها كانت باب فاطمة التى كان على يدخل إليها منه . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه ويأخذ بعصا دق الباب . ويقول : السلام عليكم أهل البيت . الصلاة الصلاة ، ثلاث مرات . ثم يقول : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

ولما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد جعل على ينقل له الماء فى درقته من المهراس ويغسل له جرحه ، فلم ينقطع الدم ، فأنت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي ، وأحرقت حصيراً ، وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم . وفى رواية أنه عليه السلام لما انصرف إلى المدينة استقبلته فاطمة ، ومعها إناء فيه ماء ، فغسل وجهه ، وأنه عليه السلام دفع إليها سيفه . وقال : اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، وأن علياً ناوله سببه وقال : وهذا ، فاغسلى عنه ، فوالله لقد صدقنى اليوم ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها : خذيه يا فاطمة فقد أدى بملك ما عليه . واحتصها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ولم يعط بعض أزواجه سيفه . ومدح علياً عليه السلام بالشجاعة أمامها لتسرّ بشجاعة بعلمها .

وبوم مؤتة ، لما قتل ابن عمها جعفر ، دخل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهى تقول : واعماه ! فقال : على مثل جعفر فلتبك الباكية أو البواكى .

وخرجت مع أبيها وبعملها يوم فتح مكة ، وضربت للبي صلى الله عليه وسلم قبة بأعلى الوادى ، وجلس فيها يغتسل ، وفاطمة تستره ، وذهب على إلى بيت أخته أم هانئ حين بلغه أنها آوت إناساً من بني مخزوم أقرباء زوجها ، فلم تعرفه أم هانئ لأنه مقع بالحديد ، وقالت له : يا عبد الله أنا أم هانئ ، ابنة عم رسول الله ، وأحت على بن أبى طالب . انصرف عن دارى . فقال : أخرجوا من آويتهم ، فقالت : والله لأشكوكك إلى رسول الله ، فزرع المعفر ، فعرفته ، وقالت : فديتك . حلفت لأشكوكك إلى رسول الله ، فقال : اذهبي فبرى قسمك ، فجاءت فأخبرته ، فقال : قد أجرت من أجرت ، فقالت فاطمة منتصرة لبعليها : إنما جئت يا أم هانئ تشكين علياً في أنه أخاف أعداء الله وأعداء رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد شكر الله لعلى سعيه ، وأجرت من أجارت أم هانئ لما كانا من على ، فجمع صلى الله عليه وسلم بمكارم أخلاقه بين حفظ شأن على وإكرام أم هانئ لآحله .

وكان من عادة الزهراء رضى الله عنها أن تزور الروضة الشريفة ، وقبر والدتها السيدة خديجة الكبرى رضى الله عنها . وعن أبى جعفر محمد الباقر رضى الله عنه قال : إن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر حمزة رضى الله عنه ، ترمه وتصلحه ، وقد علمته بحجر . وعن زرير قال أبو جعفر محمد الباقر رضى الله عنه : إن فاطمة رضى الله عنها كانت تزور قبور الشهداء بين اليومين والثلاثة ، فتصلى هالك وتدعو وتبكي . وروى المحاكم عن على رضى الله عنه قال : إن فاطمة كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة ، فتصلى وتبكي عنده .

مشاركة الزهراء في الشؤون العامة :

نشأت رضى الله عنها نشأة نبوية ، وقد ثبت اشتراكها في بعض غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يصطفها لأسراره ، فاشتركت فعلا مع أبيها في حروبه ، إذ أنها كما كانت تقوم بأمر بيتها وتديره ، وتربية أولادها وتنشئتهم . كانت تجاذب أبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها علياً رضى الله عنه الشؤون الخارجية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضرها في الأمور الهامة ، فقد حضرت بيعة النساء ، كما حضرت مباهلة وفد بحران ، فقد نزل على النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَتَهَلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) .

وكان وفد بحران قد وفدوا فيه العاقب والسيد ومن معهم ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباحلة ، فاستنظره إلى صبيحة غد من يومهم ذلك ، فلما رجعوا إلى رجالهم قال لهم الأسقف : انظروا محمداً في غد ، فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلتة ، وإن غدا بأصحابه فباهلوه ، فإنه على غير شيء . فلما كان العد جاء النبي صلى الله عليه وسلم آخذاً بيد علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، والحسن والحسين رضى الله عنهما بين يديه يمشيان وفاطمة رضى الله عنها تمشي خلفه . وخرج النصارى يقدمهم أسبقهم فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم قد أقبل بمن معه سأل عنهم ، فتبيل له هذا ابن عمه وروج ابنته وأب السبق إلي . وهذا ابن ابنته من علي ، وهما ريحانته ، وهذه الجارية ابنته فاطمة أعز الناس عليه ، وأقربهم

إني قلبه . وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجثا على ركبتيه . قال أبو حارثة الأسقف : جثا والله كما جثا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للمباهلة ، فرجع ولم يقدم على المباهلة .

فقال السيدان : يا أبا حارثة تقدم للمباهلة . فقال : لا . إني لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة ، وأنا أخاف أن يكون صادقاً ، ولئن كان صادقاً لم يحل والله علينا الحول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء . فقال الأسقف : يا أبا القاسم ، إنا لا نباهلك ، ولكن نصالحك ، فصالحنا على ما تنهض به . فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألني حلة من حلل الأواقي ، قيمة كل حلة أربعون درهماً ، فما زاد أو نقص فعلى حساب ذلك ، وعلى عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين رمحاً ، وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ضامن حتى يؤديها . وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران ، إذا كان عليهم حكمه ، وفي كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق وأفضل ذلك عليهم ، وترك ذلك كله لهم على ألني حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة . وفي كل صفر ألف حلة ، مع كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقي فبالحساب ، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب ، وعلى نجران مائة رملى ومنعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تحبس رملى فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعة ، وما هلك مما أعاروا رملى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمير على رملى حتى

يؤدوه إليهم ، ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وتبعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير ما كانوا عليه ، ولا يغير حقاً من حقوقهم وأمثالهم ، لا يفتن أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانته ، ولا وافه من وفهية ، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس عليهم رهن ولا دم حاهلية ، ولا يحشرون ولا يعرثون ولا يبطأ أرضهم جيش . من سأل منهم حقاً فبينهم الصف غير ظالمين ولا مظلومين بجران . ومن أكل منهم رباً من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، ولم على ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أئداً حتى يأتى أمر الله ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بنى نصر ، والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة . وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر .

وكانت رضى الله عنها تحضر الوغى والحروب ، وتكون تحت ظلال السيوف ترافق أباهاً وزوجها ، فتروى الطماء ، وتأسو الجراح ، وتنجبر الكسير ، وترقا الدماء ، وتثير الحمية والبسالة . وقد ذكر الواقدي أن السيدة فاطمة رضى الله عنها فى معركة أحد كما سبق وذكرت -- كانت تضمد جراح المسلمين . ولا تسل عنها حين قتل عم أبيها حمزة رضى الله عنه ، وقد كان من أشد أبطال المسلمين ، فقد أصابها من قتله لوعة ، فتقطعت عليه جهرات ، وتصعدت زفرات ، وتمثلت يومها وفاة أمها خديجة رضى الله عنها . فعاودها الأسى ، وأورثها المصاب كربة وكآبة .

أخلاقها :

كانت رضى الله عنها كريمة الخليفة ، شريفة الملكة ، نبيلة النفس ، جليلة الحسن ، مريعة الفهم ، مرهفة الدعن ، جزلة المروءة ، غراء المكارم ، فياحة نقاحة ، حريثة الصدر ، رابطة الجأش ، حمية الأنف ، ناثية عن مداهب العجب ، لا يحددها مادي الحياء . ولا يشي أعصافها الرهو والكبرياء .

ويقول أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى حياثها وعزوفها ، جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ما جاء بك يا بنية ؟ فقالت : جئت لأسلم عليك ، واستحييت أن تسأله ورجعت ، فقال لها على رضى الله عنه : ما فعلت ؟ قالت : استحييت أن أسأله ، فأتينا جميعاً ، فقال على : يا رسول الله ، لقد سنوت حتى اشتكيت ظهري ، وقالت فاطمة : لقد طحنت حتى مجلت يداى فاحدما خادماً ، فقال : والله لا أعطيكما ، وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع ، ولكن أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم ، ثم قال تحمدان عشرأ ، وتسبحان عشرأ ، وتكبران عشرأ ، فرجعت وعلى بأثرها لا يلويان على شيء .

وكانت مبهطة الخليفة فى سماحة وهوادة ، إلى رحابة صدر ، وسعة أناة ، فى وقار وسكينة ، ورفق ورزانة ، وزكانة ورضانة ، وعفة وصيانة . عاشت قبل وفاة أبيها مثقلة العزة ، وضّاحة الحيا ، حسة البشر ، باسمه الثغر . ولم تعرب بسمتها إلا مند وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم . وكانت رضى الله عنها لا يجرى لسلها بغير الحق ، ولا تنطق إلا بالصدق ، لا تذكر أحداً

بسوء فلا عيبة ولا نعيمة ، ولا همز ولا لمز ، تحفظ السر ، وتقي بالوعد ،
وتصدق النصح ، وتقبل العذر ، وتجاوز عن الإساءة ، فكثيراً ما أقالت
العثرة ، وتلفت الإساءة بالحلم والصفح . عزوفة عن الشر ، مبالغة إلى الخير
وكانت رضى الله عنها صدوقاً في قولها ، صادقة في لبيتها ، صادقة في وفائها ،
وهي تعرف أن زوجها علياً ما بلغ ما بلغه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة .

وعن عمرو بن دينار قال : قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت أحداً
قط أصدق من فاطمة غير أبيها . قال : وكان منها شيء فقالت عائشة :
« يا رسول الله سلها ، فإنها لا تكذب » . وفي الاستيعاب بسنده ، قالت
عائشة : « ما رأيت أحداً كان أصدق لحجة من فاطمة إلا أن يكون الذى
ولدها » .

وكانت رضى الله عنها أمينة حافظة للسر ، لا ترضى لنفسها أن تدب
لأحد سراً أو تهشى له أمراً ، وقد سمعت من أبيها صلى الله عليه وسلم قوله :
« طوبى لعبد نومة ، عرفه الله ولم يعرفه الناس ، أولئك مصابيح الهدى ،
وينابيع العلم ، تتجلى عنهم كل فتنة ظلماء ، ليسوا بالمذايع البدر ، ولا
الجفأة المراتين » .

وكانت في الذروة العالية من العفاف والتصادق ، طاهرة الذليل ،
عفيفة المتر ، عفيفة الطرف ، لا يميل بها هواها ، بل إنها في حصانة وصيانة
وطهر ، فهي من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين قال الله في
حقهم : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيراً) .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما خير النساء ؟ » فلم ندر ما نقول ، فصار على رضى الله عنه إلى فاطمة رضى الله عنها ، فأخبرها بذلك ، فقالت : فهلا قلت له « خير لمن ألا يرين الرجال ولا يروهن » فرجع ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له : من علمك هذا ؟ ! قال : فاطمة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما فاطمة بضعة مني » .

وعن عمران بن حصين قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ألا تطلق بنا نعود فاطمة ، فإنها تشتكى ، قلت : بلى ، قال : فانطلقا ، حتى إذا انتهينا إلى بابها سلم واستأذن ، فقال : أدخل أنا ومن معي ؟ قالت : نعم ، ومن معك يا أبتاه ، فوالله ما على إلا عبادة ، فقال لها : اصصعي بها كذا ، واصصعي بها كذا ، فعلمها كيف تستتر ، فقالت : والله ما على رأسي من خمار ، قال : فأخذ خلق ملاءة كانت عليه ، فقال : اختصري بها ، ثم أذنت لهما فدخلتا ، فقال : كيف تجدنيك يا بنية ؟ قالت : إني وجعة ، وإنه ليزيدني أنه ما لي طعام آكله ، قال : يا بنية ، أما ترصين أنك سيدة نساء العالمين ؟ قال : تقول هذا يا أبت ! فأين مريم ابنة عمران ، قال : تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء العالمين ، أما والله لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة .

وعن جابر بن سمرة ، قال : جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس فقال : إن فاطمة وجعة ، فقال القوم : لو عدناها ، فقام ومشى حتى انتهى إلى الباب فادى : شدى عليك ثيابك ، فإن القوم جاءوا يعودونك ، فقالت : يا نبي الله . ما على إلا عبادة ، قال : فأخذ رداءه فرمى به إليها

من وراء الباب . فقال : شدى بهذا رأسك ، فدخل ودخل القوم ، فقعده ساعة فخرجوا ، فقال القوم : تالله بنت نبينا صلى الله عليه وسلم على هذا الحال ، قال : فالتفت ، فقال : « أما إنها سيدة النساء يوم القيامة » .

وكانت إذا ما كلمها إنسان ، أو خطلت الرجال ، يكون بينها وبينهم ستر يحجبها عنهم عفة وصيانة . ومن عجيب تصاوها رضى الله عنها أنها استقبلت بعد الوفاة ما يصنع بالنساء من أن يطرح على المرأة الثوب فيصفها ، فوصفت لها أسماء بنت عميس ما رآته بالحشة مما يشبه المودج ، كما سئرى ذلك تفصيلاً فيما بعد ، تكون به المتوفاة ، ويطرح عليه الثوب فيكون ساتراً لها فاستحسنته ، وقالت : ما أحسن هذا وأجمله ، وأوصت به حتى لا يتبين أحد وصفها بعد وفاتها عفة وتصانوا .

وكانت الزهراء رضى الله عنها قانعة بحالها ، وكانت توقن أن الحرص يفرق القلب . ويشتت الأمر ، وكانت تستمسك بما سمعته عن أبيها صلى الله عليه وسلم ، قال : « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً أو قمع به » ، وسمعه صلى الله عليه وسلم وهو يخاطب في الناس ويقول : أيها الناس أحمّلوا في الطلب ، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له في الدنيا ، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له فيها ، وهى راغمة . وقد قال لها أبوها صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة اصبرى على مرارة الدنيا لتفوزى بنعيم الأبد » . وعن أسماء بنت عميس ، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاها يوماً فقال : أين ابناى ، يعنى حسناً وحسيناً ، قالت : قلت : أصبحنا وليس في بيتنا شئ يذوقه ذائق ، وإنا لنحمد الله تعالى ، فقال على : أذهب بهما . فإني أخوف أن يبكيا عليك .

وليس عندك شيء ، فذهب بهما إلى اليهودى ، فتوجه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدهما يلعبان في مشربة بين أيديهما فصل من تمر فقال : يا على ، ألا تقلب اتنى (أى ترجعهما) قبل أن يشتد الحر عليهما ؟ قال على : قد أصبحنا ، وليس في بيتنا شيء ، فلو جئت يا رسول الله حتى أجمع لفاطمة تمرات ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يترع لليهودى كل دلو تمره حتى حتمع له شيء من تمر ، وحملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفاطمة صابرة الصبر الحميل على تلك العيشة الشديدة ، تستقبلها بقاعتها ، وتكثر من حمد الله تعالى عليها ، فهي قانعة بحالها ، راضية بعيشتها ، وهي التي أقرأها أبوها صلى الله عليه وسلم ما خاطبه به ربه : (فلا تُعَجِّبْكُمُ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) ، وقوله : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَا بِهِ أَرْوَاحًا مِنْهُمْ زهرة الحياة الدنيا) ، فكانت لقاء هذا راضية بالعيش من العيش ، صابرة على شطف الحياة قذرة باليسير من الحلال ، فكانت نفسها راضية مرضية .

وكانت الزهراء رضى الله عنها لا تطمح إلى ما لغيرها ، ولا تستشرف بصورها إلى ما ليس من حقها ، فما كانت تطمح في حق أحد ، وما كانت تنزل إلى سؤال غير الله تعالى ، فهي غية نفسها ، قريرة بحالها ، وقد قال أبوها صلى الله عليه وسلم : ليس العنى عن كثرة العرض ، إنما العنى عني نفس . وقد قال صلى الله عليه وسلم لأعرابي وهو يعظه : إذا صليت فصل صلاة مودع ، ولا تحدث بحديث تعتذر منه غداً ، واجمع اليأس عما في أيدي الناس ، فإن اليأس عما في أيدي الناس هو العنى الحاضر . وقد سمعت الإمام علي يقول : « ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستعانة بهم ، فيكون افتقارك إليهم في لئ كلامك ، وحسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم

في نزاهة عرضك ، وبقاء عزك ، ولا بدع فهي السيدة التول التي انقطعت إلى الله تعالى عن دنياها ، وعرفت عن زخارفها ومشتهاها ، فكانت عن متعة الحياة عازقة ، وعن غرورها صادقة ، وبآفات دنياها عارفة ، وما عرف عنها في حياتها أنها استشرت لشيء منها طيب نفس وعرة قناعة ، تنسربل الصبر الجميل لأدواء الحياة ، وتغاني شطف العيش في دنياها ، ولسانها رطب يذكر مولاه .

لقد كان هم الزهراء الآخرة ، فلم تحمل بزخارف الدنيا ومباهجها ، ولقد قال أبوها صلى الله عليه وسلم : « من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره ، وفرق عليه جمعه ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » . وقد قال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه وفاطمة رضي الله عنها مسموع من ذلك : « يا علي من عرضت له دنياه وآخرتة فاحتر الآخرة وترك الدنيا فله الجنة ومن احتار الدنيا استخفافاً بآخرتة ، فله النار » .

وقد تأدبت رضي الله عنها بآداب أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد سمعته يقول : « إن ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، ولكن أجوع يوماً ، وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأنضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » . فنشأت رضوان الله عليها قالية للدنيا ، عاتفة لمتعها ، منصرفة عن زيتها وشهواتها .

وقد روى الحاكم في المستدرک بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على فاطمة وقد أخذت من عنقها بسلسلة من ذهب ، فقالت : هذه أهداها أبو الحسن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يفاطمة أيسرك

أن يقول الناس فاطمة بنت محمد وفي يدك سلسلة من نار» ، ثم خرج ولم يقعد ، فعمدت فاطمة رضي الله عنها إلى السلسلة فاعتها ، واشترت غلاماً فأعتقته ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « الحمد لله الذي نحى فاطمة من النار » .

لقد كانت الزهراء راضية بحالها ، تاركة الاعتراض والسخط ، وهذه آية من آيات حبها لربها عز وجل ، أعرضت عن متاع الدنيا وطيباتها ، ورضيت بشطط العيش ، واستوى عندها الفقر والغنى ، والراحة ولقاء ، ولصحة والمرض ، والبقاء واللقاء ، والموت والحياة ، ولقد عرف عنها رضي الله عنها صبرها على البلاء ، وشكرها عند الرجاء ، ورضاها بواقع القضاء . وقد روت عن أبيها صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتبه ، وإن رضي اصطفه » ، وبما لقته لولديها : الصبر والرضا رأس طاعة الله تعالى ، ومن صبر ورضي عن الله تعالى فيما قضى عليه أحب أو كره لم يقض الله عز وجل له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له ، وقد عرفت أن الله عز وجل أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام ، يا موسى ابن عمران ما خلقت خلقاً أحب إلي من عبدى المؤمن ، وإني إني أبتليه لما هو خير له ، وأزوي عنه لما هو خير له ، وأعلم بما يصلح عليه عبدى ، فليصبر على بلائى ، وليشكر نعمائى ، وليرض بقضائى ، أكتنه فى الصديقين عدى إذا عمل برضى ، وأطاع أمرى .

وكانت رضي الله عنها على هدى أبيها صلى الله عليه وسلم فى جوده وسخائه ، لأنها سمعت أباها صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « السخاء شجرة من شجر الجنة ، أغصانها متدلّية إلى الأرض ، فمن أخذ منها غصناً قاده

ذئب العنص إلى الجنة . وكذلك سمعت الرسول حين قال : « السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، وإن الله سبحانه وتعالى حواد يحب الحواد » .

وفي دلائل الإمامة بسنده عن الحسين رضي الله عنه ، عن أمه فاطمة رضي الله عنها قالت : قال لي أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياك والبخل ، فإنه عاهة لا تكون في كريم ، إياك والبخل ، فإنه شجرة في النار ، وأغصانها في الدنيا ، فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله النار والسجاء شجرة في الجنة ، وأغصانها في الدنيا ، فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله الجنة » ، كما أنها سمعت زوجها علياً رضي الله عنه يقول : « ومن يسقط يده بالمعروف إذا وحده بخلف الله له ما أُنق في ديناه ويضاعف له في آخرته » .

وكان الإيثار من شعار المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولقد قالت بعض روجاته رضي الله عنهن إنه صلى الله عليه وسلم : ما شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فرق الدنيا . « ولو شئنا لشبعنا ، ولكننا نؤثر على أنفسنا » . وقد قال الله سبحانه وتعالى : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَثُو كَانَ بِهِمْ حَصَاصَةٌ) . ولقد كانت السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها خير من يؤثر على نفسها اقتداءً بأبيها صلى الله عليه وسلم في سنته وسيرته ، وحفاظاً لتلك الخلقة الكريمة ، فهي من آل بيت عرفوا بالمرءة والإيثار ، وقد ذكر ابن الجوزي : أن النبي صلى الله عليه وسلم صنع لفاطمة رضي الله عنها قميصاً جديداً ليلة عرسها وزفها ، وكان لها قميص مرقوع ، وإذا بسائل على الباب يقول : أطلب من بيت النبوة قميصاً خلقاً ، فأرادت أن تدفع إليه التقميص المرقوع ،

فذكرت قوله تعالى : (لَنْ تَأْكُلُوا أَرْضَ حَتَّى تَقْفُوا مِمَّا تَحْتُونَ) ، فدعت إليه القميص الحديد فلما قرب الرفوف أتاها جبريل عليه السلام بقميص من سدس أخضر ، فما رآته نساء يهوديات حضرن الرفوف حتى أسلمن وأسلم بعدهن أزواجهن .

وفي مسامرت الشيخ الأكبر ، وفي تفسير البيضاوى عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قال في قوله تعالى : (يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَأْمَنُوا بِرَبِّهِمْ) : قالوا يا رسول الله ، فاعدهما مرضا ، فقال عمر لعلى : يا أبا الحسن ، لو نذرت عن ابنك بذرا إن الله عفاهما ، فقال : أصوم ثلاثة أيام شكرا لله . قالت فاطمة وأنا أيضا أصوم ثلاثة أيام شكرا لله ، وقال الصبيان : ونحن بصوم ثلاثة أيام ، وقالت حارثتهما فضة : وأنا أصوم ثلاثة أيام ، فألسهما لله العافية ، فأصبحوا صياما وليس عندهم طعام ، فانطلق على إلى حارة من اليهود يقال له شمعون يعالج الصوف ، فقال له : هل لك أن تعطيني جزء من صوف تغزلها لك بنت محمد بثلاثة أصوع من شعير ؟ قال : نعم . فأعطاه فجاء بالصوف والشعير ، فأخبر فاطمة فقبلت وأطاعت ، ثم غزلت تلك الصوف وأخذت صاعا من الشعير فطحنته وعجنته وخبرته خمسة أقرص لكل واحد قرص . وصلى على رضى الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم المغرب ، ثم أتى منزله فوضع الخوان فجلسوا ، فحينما كسر على رضى الله عنه أول لقمة إذ تمسكين وقف بآداب ، فقال : السلام عليكم يا أهل بيت محمد . أر مسكين من مساكين المسلمين . أظعموني بما تأكلون . أظعمكم الله من مؤثله الحلة ، فوضع على اللقمة من يده ثم قال :

فاطمه ذات المجد وبيقين يا ابت خير الناس أجمعين
أما ترى لئاس المسكين جاء إلى الباب له حين
كل امرئ بكسه رهن

فقلت فاطمة رضى الله عنها :

أمرك سمع يا بن عم وطاعة مانى من لوم ولا ضراعه
عديت باللب وبالبرعه أرحو ذا أنفقت من مجاعه
ن الحق لأررار ولجماعه ودخل الحنة فى الشفاعة

قال : فعمدت إلى ما فى الخوان فدفعته إلى المسكين ، وابتوا جوعاً ،
وأصبحوا صياماً لم يدوقوا إلا الماء القراح . ثم عمدت إلى الثلث الثانى من
الصوف فعزلته . ثم أخذت صاعاً قطعته وعجته ، وخبرت منه خمسة
أقرص لكل واحد قرص . وصلى على المغرب مع النبي صلى الله عليه وسلم .
ثم أتى مرله . فلما وضعت الخوان وحلست سيدنا على رضى الله عنه ،
وكسر أول لقمة إذا يتيم من يتامى المسلمين قد وقف على الباب وقال :
السلام عليكم أهل بيت محمد . أنا يتيم من يتامى المسلمين ، أطعموني
مما تأكلون . أطعمكم الله من موائد الحنة . فوضع على اللقمة من يده
وقال :

أدطم بنت السيد الكريم قد جاء الله بدا اليتيم
من يطلب اليوم رضا الرحيم مواعده فى حنة النعم
فأقبلت السيدة فاطمة رضى الله عنها وقالت :

فسوف أعطيه ولا أنالى وأثر الله على عيالى
مسا جوعاً وهم أمثالى أصغرهم يقتل فى القتال

ثم عمدت إلى جميع ما كان في الخوان فأعطت اليتيم إياه ، وبتوا جوعاً لم يدوروا إلا الماء تقراح ، وأصبحوا صياماً . وعمدت فاطمة إلى باقي الصوف فغزلته ، وطحنت الصاع الباقي وعجنته وخبزته خمسة أقراص ، نكل واحد قرص ، وصلى على رضى الله عنه العرب مع الرسول ، ثم أتى منزله . فقتربت إليه الحون فجلس وعندما بدأ يكسر أول لقمة إذا بأسير من أسارى المسلمين بالناب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد . إن الكفار أسرونا وقيدونا ولم يطعمونا ، فوضع على اللقمة من يده وقال :

فاطمة ابنة النبي أحمد بنت نبي سيد مسود
هذا أسير جاء ليس يهتدى مكبل في قيده المنقيد
يشكو إلينا الجوع والتشدد من يطعم اليوم يجده في غد
عند العلى الواحد الموحد ما يزرع الزارع يوماً يحصد
فأقبت فاطمة رضى الله عنها تقول :

لم يبق مما جاء غير صاع قد دبرت كفى مع الدراع
وانسى والله لقد أجاعا يا رب لا تهلكهما ضياعا

ثم عمدت إلى ما كان في الخوان فأعطته إياه ، فأصبحوا مفطرين وليس عندهم شيء .

وأقبل على وسانه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن والحسين يرتعشان من شدة الجوع . فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال يا أبا الحسن ، أشد ما يسوؤني ما أدرككم . انطلقوا بنا إلى ابنتي فاطمة . فانطلقوا إليها وهي في محرابها . وقد لصق بطنها بظهرها من شدة الجوع ، وغارت عيناها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمها إليه وقال :

« واعوثاه ! أهل بيت محمد يموتون جوعاً » . ولم يته الرسول صلى الله عليه وسلم من كلامه حتى هبط عليه أمين الوحي وهو يرفع إليه سورة (هل أتى) وفيها أحمل الشاء وعاطر الذكر لأهل البيت : قال الله سبحانه وتعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَرِّهِ مَسْكِيًّا وَيَتَيْمًا وَآسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوسًا قُمْطَرِيرًا . فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أُتُوفُوقُهَا تَدْلِيلًا . وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا . قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَعْدِيرًا . وَيُسَقَوْنَ فِيهَا كَأْسٌ كَانَ مِزَاجُهَا رَنْجَبِيلًا . عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُحَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُوتًا مَشُورًا . وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا . عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضَرُ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسُورٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) .

لقد شكر الله سبحانه على هذا الإيثار الذي لا نظير له في عالم المبررات والإحسان ، وأورثهم في دار الآخرة الفردوس يتقلدون في نعيمه ، وجعل ذكرهم خالداً ، وحياتهم قدوة ، وجعلهم أئمة المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن كتب بشارة المنصفي لأبي جعفر الطبري ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ،

فلما امتلأ مجلس في قنينة والناس حوله ، فيها هم كذلك إذ أقبل شيخ من
 مهاجرة العرب ، وهو لا يكاد يتالك ضعفاً وكبراً ، فأقبل رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يستحليه الخبر ، فقال الشيخ : يا نبي الله ، أن حائض الكبد
 فأطعمني ، وعذري الجسد فاكسني ، وفقير دارشني ، فقال : ما أحد لك
 شيئاً ، ولكنك للدن على الحبر كفاعة . انطلق إلى منزل من يحب الله
 ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، ويؤثر الله على نفسه ، انطلق إلى حجرة
 فاطمة - وكان بيتها ملاصقاً ببيت الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تنفرد به
 نفسه من أزواجه - يا بلال ، قم فقف به على منزل فاطمة . فانطقوا الأعراي
 مع بلال ، فلما وقف على باب فاطمة ، نادى بأعلى صوته : السلام عليكم
 يا أهل بيت لسوة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط حبريل الروح الأمين
 بالتزليل من عند رب العالمين .

فقلت فاطمة : من أنت يا هذا ؟ قال : شيخ من العرب . أقبلت
 على أبيك سيد البشر مهاجراً من شقة بعيدة ، وأنا يا بنت محمد عذري
 لجسد ، حائض الكبد ، فواسيني ، يرحمك الله تعالى . وكان لفاطمة وعلى
 رضى الله عنهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم على تلك الحال ثلاث ليال
 ما طعموا فيها طعاماً . وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من شأنهما ،
 فعمدت فاطمة إلى حنك كيش مدبوع بالقرظ كان يتم عليه الحسن
 والحسين ، فقالت : خذ هذا أيها الضارق ، فعسى الله أن يتيح لك ما هو
 خير منه ، فقال الأعراي : يا بنت محمد ، شكوت إليك الجوع فداونتي
 جلد كيش . فماذا أن صانع به مع ما أحده من سعب ؟ قال : فعمدت
 فاطمة رضى الله عنها ، لما سمعت هذا من قوله ، إلى عقد كان في عنقها

أَهْدَتْهَا يَا هَ فَاظْمَة بِنْت عَمِّهَا حَمْرَة بِن عَدِ الْمَصْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَفَزَعَتْهُ
 مِنْ عَقْفِهَا . وَدَفَعَتْ بِهِ إِلَى الْأَعْرَابِيِّ . وَقَالَتْ : حَذِّهِ وَبَعِّهِ . فَعَسَى اللَّهُ أَنْ
 يَعْصِيكَ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ . فَأَخَذَ الْأَعْرَابِيُّ الْعَقْدَ وَانْطَلَقَ إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالرَّسُولُ جَالِسٌ بَيْنَ أَصْحَابِهِ . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
 لَقَدْ أَعْطَيْتَنِي فَاظْمَة بِنْتُ مُحَمَّدٍ هَذَا الْعَقْدَ . وَقَالَتْ : بَعُّهُ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ
 يَعْصِيكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ . فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَامَ عِمَارُ
 ابْنُ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَتَأْذُنِي بِشِرَاءِ هَذَا
 الْعَقْدِ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اشْتَرِهِ يَا عِمَارُ . فَلَوْ اشْتَرَيْتَ فِيهِ الثَّقْلَانِ
 مَا عَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِالنَّارِ . فَقَالَ عِمَارُ لِلْأَعْرَابِيِّ : بِكُمْ تَبِيعَ هَذَا الْعَقْدَ يَا أَعْرَابِي ؟
 قَالَ : بِشِبْعَةَ مِنَ الْخَزَرِ وَاللَّحْمِ أَذْهَبَ بِهَا جَوْعَتِي . وَبِرْدَةَ بَحْنَانِيَّةٍ أَسْتَرَّ بِهَا
 عَوْرَتِي . وَأَصْلَى فِيهَا لَرْنِي . وَدِيَارٌ يَنْتَعِي إِلَى أَهْلِي . وَكَانَ عِمَارٌ قَدْ بَاعَ سَهْمَهُ
 الَّذِي نَفَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُ شَيْئًا . فَقَالَ : لَيْتَ
 عَشْرُونَ دِينَارًا . وَمِائَتًا دِرْهَمًا . وَبِرْدَةَ بَحْنَانِيَّةٍ . وَرَاحِلَتِي تَبْلُغُنِي إِلَى أَهْلِي .
 وَشِبْعَةَ مِنَ خَيْرِ الْبَرِّ وَاللَّحْمِ . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : مَا أَسْحَاكَ بِأَمْلِكِ أَيُّهَا الرَّجُلُ !
 وَانْطَلَقَ بِهِ عِمَارُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَفَّاهُ مَا ضَمِنَ لَهُ . وَعَادَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَى رَسُولِ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَشْبَعْتَ
 وَاكْتَسَيْتَ ؟ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : نَعَمْ . يَا رَسُولَ اللَّهِ . وَاسْتَعْنَيْتَ . بَأْنِي أَنْتَ
 وَمُنَى ! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَاجْزِ فَاظْمَة بِصَبْعِهَا . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ :
 اللَّهُمَّ إِنَّا إِلَهُكَ مَا اسْتَحْدَثْتُكَ . وَلَا إِلَهَ لَكَ نَعْبُدُكَ سِوَاكَ . وَأَنْتَ فِي كُلِّ
 حِينٍ . اللَّهُمَّ أَعْظِ فَاظْمَة مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ . وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ . حَافِئُ رَسُولِ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى دَعْنَتِهِ . وَأَقْبَلْ عَلَى أَصْحَابِهِ . فَقَالَ : إِنْ لَمْ

قد أعطى فاطمة في الدنيا ذلك ، فأنا أبوها ، وما أحد من العالمين مثلي ،
وعلىّ بعلمها ، ولولا علىّ ما كان لفاطمة كففه أبداً ، وأعطاها الحسن
والحسين ، وما للعالمين مثلهما ، سيدا شباب أسباط الأنبياء ، وسيدا شباب
أهل الجنة . وكان بإزائه المقداد وابن عمر وعمار وسلمان رضي الله عنهم .
فقال : وأريدكم ؟ فقالوا : نعم ، يا رسول الله ، فقال : أتاني الروح الأمين
جبريل ، وقال : إنها إذا هي قبضت ودفت يسألها الملكان في قبرها : من
ربك ؟ فتقول : الله ربي . فيقولان : من نبيك ؟ فتقول : أني .

ألا وأريدكم من فضلها أن الله عز وجل وكل بها رعيلاً من الملائكة
يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها ، وهم معها في
حياتها وعد قبرها بعد موتها ، يكثرُونَ الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلمها وسببها ،
فمن رارني بعد وفاتي فكأنما رارني في حياتي ، ومن رار فاطمة فكأنما رارني ،
ومن زار علياً فكأنما زار فاطمة ، ومن رار الحسن والحسين فكأنما رار علياً ،
ومن زار ذريتهما فكأنما رارهما .

• فعمد عمار إلى العقد وطبّه بالمسك ، ولفه في بردة يمانية ، وكان له
عبد اسمه سهم ابتاعه من ذلك السهم الذي أصابه بحجير . فدفع العقد إلى
المملوك وقال له : خذ هذا العقد فادفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت
له ، فأخذ العقد فأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بقول عمار ،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انطلق إني فاطمة فدفع إليها العقد وأنت
لها ، فجاء المملوك بالعقد وأخبرها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فأخذت فاطمة رضي الله عنها العقد ، وأعتقت المملوك ، فضحك الغلام .

فتأملت فاطمة رضي الله عنها : ما يضحكك يا غلام ؟

فقال : أضحكى عظم بركة هذا العقد ، أشع جاعاً ، وكسى عرياناً ، وأغنى فقيراً ، وأعتق عبداً ، ورجع إلى ربه .

وقد لمست الزهراء من أبيها صلى الله عليه وسلم حبه ومودته وحنوه وشفقته ، فكانت نعم البرة به صلى الله عليه وسلم ، أخلصت له في حبه وولائها وحبوها ووفائها له . فأثرت على نفسها . وحين تقدمت السن بأمها كانت فاطمة رضي الله عنها هي التي تتولى تدبير بيت أبيها صلى الله عليه وسلم ، تقوم بإدارته ، وتحجز ما يصلحه ، ويبعث الهدوء والروعة فيه ، وكانت تسارع إلى كل ما يرضى أباه رسول الله صلى الله عليه وسلم : تسكب له الماء ليغتسل ، وتبني له طعامه ، وتغسل ثيابه ، فوق ما كانت تشترك مع النساء في الغزو . ففي غزوة أحد خرج محمد بن مسلمة يطلب مع النساء ماء ، وكان قد جث أربع عشرة امرأة منهن فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويدأوينهم . ومنهن أم سليم بنت ملحان ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما ، تحملان على ظهورهما القرب ، ومنهن حمزة بنت جحش ، وكانت تنقى العصى وتداوى الجرحى ، ومنهن أم أيمن تنقى الجرحى ، فلم يجد محمد بن مسلمة عند النساء ماء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عطش عطشاً شديداً ، فذهب محمد بن مسلمة إلى قناة حتى امتلئ من حصى ، فأتى بماء عذب ، فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير ، وجعل الدم لا يقطع . وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يبالوا ما مشها حتى تستلموا الركن » ، فلما رأت فاطمة عليها السلام الدم لا يرقأ وهي تغسله ، وعلى يصب الماء عليها بالمجن ، أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى صارت رماداً ، ثم ألصقتها بالجرح

فاستمسك الدم ، وكان هذا الحصار يعمل من البردى ، وكانت حين رأت
الذى بوجه أبيها صلى الله عليه وسلم اعتنقه ، وجعلت تمسح الدم ، والأسي
بملكها لبرها بأبيها وحفاظاً لحقه . وعن علي رضي الله عنه ، قال : كما مع
النبي صلى الله عليه وسلم في حمر الخندق ، إذ جاءته بكسرة من خبز
فرفعتها إليه ، فقال : ما هذه يا فاطمة ؟ قالت : من قرص اختزته لأبني ،
جئتك منه بهذه الكسرة فقال : يا بنية أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك
منذ ثلاثة أيام ^(١) .

وروى الزمخشري في الكشاف عند قصة زكريا ومريم عليهما السلام ،
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جاع في زمن قحط ، فأهدت له فطمة
رعيصين وبصعة لحم آثرته بها ، فرجع بها إليها ، وقال : هلمي يا بنية . وكشف
عن الطبق ، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً ، فبهت ، وعلمت أنها نزلت من الله
سبحانه وتعالى ، فقال لما : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن
الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال : الحمد لله الذي جعلك شبيهة
سيدة نساء بنى إسرائيل . ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن
أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضي الله عنهم حتى شبعوا ، وبقي
الطعام كما هو ، وأوسعت فاطمة جيرانها .

أما منزلتها وقدرها عند أبيها صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت رضي الله
عنها بالحلل الأرفع من أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد حضر أبو سفيان
إلى بيت فاطمة قبل فتح مكة مستنجداً مستنجراً ، فإن قريشاً - حين أحست
بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يتركها أن نقضت عهده وحفرت ذمته -

(١) كانت هذه الرواية أول ما سمعته في المدينة المنورة عند زياد بن

أُرسلت أبا سفيان ليكون رسول سلام ، ويعمل على تأخير الزحف ، فقصده أبا بكر وعمر وعثمان فلم يغفوا عنه من الأمر شيئاً ، فسار إلى بيت فاطمة ، فدخل عليها ، وكلمها في أن تحجير بين الناس ، مما هو آية على نفوذ فاطمة عند والدها ، ولولا ذلك لما مشى كبير قريش وزعيمها إليها ليسألها الوساطة وأن تحجيره ، وقد أثبت عليه فاطمة ذلك وقالت : إنما أنا امرأة ، ولا يحجر على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد ، فلم تشأ أن تفتات على أبيها ، وهي تعلم أنها لو أجارت أبا سفيان لقبل أبوها صلى الله عليه وسلم جوارها ، وكانت بمثابة أمن وسلام ، ولكنها - وهي الحريصة على حق أبيها صلى الله عليه وسلم وما يجب عليها نحوه - أثبت أن تسائر أبا سفيان فيما يطلبه ، وهو يعلم أنها لو أجارته لما وقف أمامها أحد ، ولنقد أبوها صلى الله عليه وسلم وعدّها ، وآوئى بمعهدّها . وهكذا أدب أولاد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

ولما أجارت أم هانئ بنت أبي طالب حموين لها : عبد الله بن أبي ربيعة والحارث بن هشام المحزوميين ، دخل عليها أخوها علي بن أبي طالب يريد قتلها ، وقال : تحجير بين المشركين ؟ فأغلقت عليهما بيتاً ، ثم ذهبت إلى خباء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطحاء ، فشكت إلى فاطمة عليها السلام ما أتاه عليّ ، فلم تشكها ذلك إلا لما تعرفه من قدر فاطمة عند أبيها وزوجها ، ولكن فاطمة رضى الله عنها ما كانت ترضى إلا بما يرضاه الله تعالى ، فلا ترضى أن يحجير على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد .

ولما قدم وفد نجران ، وأرسل نصارى نجران العاقب والسيد في نفر لماهلة رسول الله صلى الله عليه وسلم . خرج الرسول ومعه فاطمة وعلى والحسن والحسين عليهم السلام ، فلما رأوهم قالوا : هذه وجوه لو أقسمت على الله

أن يزبل الجبال لأزالتها . ولم يباهلوا ، وصالحوا على ألى حلة ثمن كل حلة أربعون درهماً ، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل لهم عليه الصلاة والسلام دمة الله وعهده ، على ألا يفتوا عن دينهم ، ولا يبشروا ولا يحشروا ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به .

وتقول السيدة عائشة رضی الله عنها : كانت فاطمة إذا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقبلها ورحب بها وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأخذت بيده وأجلسته في مجلسها ، وكان الرسول دائماً يحتضنها بصره ، ويرجع إليها في أمره .

زواج السيدة فاطمة :

إن السيدة الزهراء لما أنارت في سماء الرسالة شمس جمالها ، وتم في أفق الجلالة بدر كمالها ، امتدت إليها مطالع الأفكار ، وتمت النظر إلى حسنها أبصار الأخيار^(١) ، وأحس صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم قيمة فاطمة لدى أبيها ، وعلموا أنها بلغت مرحلة النصح بكل أبعادها ، فتباروا لخطبتها من أبيها ، طلباً للشرف ، ورغبة في الكرامة ، وحرصاً على التقرب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان لابد لكبار الصحابة أن يتقدموا لطلبها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي طليعتهم أبو بكر وعمر وغيرهما . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض في كل مرة بوجهه عنهم ، بعد أن يتصل بالزهراء نفسها فتظهر عدم رغبتها ورفضها لعرض الخطبة

(١) الزهراء ، للأستاذ عبد الزهراء عبد محمد .

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يتصل بالزهراء في هذه القضية لأنه لا يعلم من يستحق أن يكون لها كفواً ، ولكن روح الشريعة الإسلامية هي التي تفرض على الآباء ألا يتوا في موضوع زوج بناتهم وأبنائهم دون الاطلاع على مدى رغبتهم أو رفضهم للفتيات إن كانوا رجالاً ، أو رغبتهن أو رفضهن فيما لو كنَّ نساءً . والرسول صلى الله عليه وسلم إنما يعكس لنا واقع الشريعة المقدسة ومعين الرسالة الإلهية القويمة الذي يفرض ذلك ويرسمه للمجموعة الإنسانية لخلق الأسرة الصالحة المتحابة المتعانة القلوب والعواطف ، لكي يخلق المجتمع الصالح المتين المتكاتف كالسنان المرصوص بدون أن تلعب به الأهواء .

وستمر برسول عليه الصلاة والسلام يعرض بوجهه عن من يحطّب ابنته الزهراء عليها السلام ويرده بقوله : « أنتظر فيها أمر القضاء » وفي أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر فردهما قال لكل منهما أنتظر بها القضاء ، أو قال : « إنها صغيرة » .
ولقد در من قل :

من مثل فاطمة الزهراء في نسب وفي فحار وفي فضل وفي حسب
ولله فضلها حقاً وشرفها .. إذ كانت ابنة خير العجم والعرب
ويقول السيد محمد صادق الصدر في كتابه حياة أمير المؤمنين ،
وكان أبو بكر أول من عرض إلى حصبة الزهراء عيباً لسلام فردة الصديق
الأمين رداً حميلاً مقبلاً قائلا : « يا أبا بكر لم يزل القضاء بعد » (١) !
وقد سمع بالأمر عمر فتقدم إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بما تقدم

إليه رفيقه وصاحبه فأعاد عليه الجواب نفسه وعندئذ ذهب أبو بكر وأبو حفص إلى عبد الرحمن بن عوف يطلبان منه الخطبة وقال له : « أنت أكثر قريش مالاً فلو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطبت فاطمة زادك الله مالاً إلى مالك وشرفاً إلى شرفك فأتي النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله زوجني فاطمة فأعرض عنه رسول الله فأتاهما فقال قد نزل بي مثل الذي نزل بكما » وهنا فهما أن رسول الله لا يطلب مالاً وإنما يطلب علماً وفضلاً فمن هو ذلك الرجل الذي يتصف بصفات تميزه على غيره وتجعله كفواً لأن يكون صهراً للرسول وبعلاً للزهراء البتول ؟ ! - هذا ما كان يفكر به الشيخان لذلك كانا يرغبان رغبة ملحة في معرفة تلك الشخصية العظيمة القريبة من الله والحيية إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فتوجهنا إلى علي عليه السلام لأنهما يعرفان منزلته الرفيعة عند الله والرسول - وقال له : « قد عرفنا قرابتك من رسول الله وقدملك في الإسلام فلو أتيت رسول الله فخطبت إليه فاطمة لزدك الله فضلاً إلى فضلك وشرفاً إلى شرفك »^(١) وقال غيرهما من أصحاب الرسول كما روى ذلك أنس بن مالك لعلي : « لو خطبت إلى النبي لخليق أن يزوجهكما »^(٢) .

وفي يوم اجتمع الصديق والفاروق وسعد بن معاذ رضوان الله عليهم في مسجد الرسول ، فتذاكروا أمر فاطمة رضي الله تعالى عنها ، فقال أبو بكر : قد خطبها الأشراف فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويحدثنا ابن عباس فيقول : « كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله

(١) كعدة اطلال

(٢) دحتر اعبي ص ٣٠ .

عليه وسلم تُذكر فلا يذكرها أحد لرسول الله إلا أعرض عنه فقال سعد بن معاذ الأضاري لعلي بن أبي طالب : إني والله ما أرى رسول الله يريد بها غيرك ^(١) ومن هنا يعلم أن الكلمة قد أجمعت على أن الرجل المنتظر مثل هذا الزواج هو على عليه السلام .

ولماذا لا يكون هو ذلك الرجل ؟ ! وهو أقرب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسقطهم إلى الإسلام . وأقدمهم في الإيمان وأعلمهم بالسنة وأكبرهم تضحية وشدهم إخلاصاً لله ورسول وللدين .

ومن كانت هذه صفاته فهو جد قريب من أذهان الناس عندما تعرض الأسماء وتستعرض الشخصيات الكبيرة التي تطمع بهذا القران .

ويستمر أستاذنا محمد صادق الصدر في رسالته فيقول : إن إجماع الأصحاب على أن يحطّب الإمام الزهراء يدلّ دلالة واضحة على أن له منزلة في نفوسهم . وفي نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن لواحد منهم ولا سيما إذا علمنا أن هذا الطلب جاء بعد رفض الرسول صلى الله عليه وسلم لطلبهم وإعراضه عنهم .

وأقبل الإمام عليّ على الرسول صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة وطرق الباب فقالت من الباب - فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « قومي وفتحي الباب له - هذا رجل يحبه الله ورسوله ويحبهما) .

فقالت : فذاك أبي وأمي ، ومن هذا ؟

فقال : هذا أخى وأحبّ الحق إلى .

قالت أم سلمة : فقامت مبادرة أكاد أعثر في مرطلي ، ففتحت الباب ،

فإذا بعلى بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم وجهه ، فوالله ما دخل حتى علم
أني قد رجعت إلى خدرى ، فدخل وسلم ، فردّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال له : أجلس ، فجلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل يطرق
إلى الأرض كأنه قاصد حاجة يستحى منه .

فقال له الرسول : يا على كأنك قاصد حاجة ، فابدأ بما في نفسك ،
فكل حاجتك عندي مقضية .

فقال على رضى الله عنه : فذاك أبي وأمي يا رسول الله . إنك لتعلم أنك
أخذتني من عمك أبي طالب ، ومن فاطمة بنت أسد ، وأنا صبي لا أعقل
شيئاً ، فهديتني وأدبتني وهديتني ، فكننت أفصل من أبي طالب وفاطمة
بنت أسد في البر والشفقة ، وإن الله عز وجل هداني بك ، واستنقذني مما
كان عليه آبائي وأعمامي من الشرك ، وإنك يا رسول الله ذخرى ووسيلتى
في الدنيا والآخرة ، وقد أحسيت مع ما شدد الله عز وجل بك من عضدى
أن يكون لى بيت وروحة أسكن إليها ، وقد أتيتك خاطباً ابتك فاطمة .
فهل تزوجنى يا رسول الله ؟

قالت أم سلمة : فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تهلل فرحاً
وسروراً ، ثم تسم في وجهه على وقال : « يا على هل معك شيء تصدقها ؟ »
قال : والله ما يحق عنيك حالى ، ولا شيء من أمرى . ما أملك غير درعى
وسيفى وناضحى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما سيفك فلا غنى لك عنه ،
تجاهد به في سبيل الله ، وأما ناضحك : فتنضح عليه لأهلك ، وتحمل عليه
رحلك في سفرك ، ولكن زوّجتك على درعك . »

ورضيت به منك ، وأبشر يا أبا الحسن ، فإن الله عز وجل قد زوجك بها في السماء قبل أن أزوجك بها في الأرض .

وفي رواية أن علياً لما سأله النبي : هل عندك من شيء ؟ قال : كلا . فقال له : وأين درعك الحظمية ؟ أي التي تحطم السيوف . وكان النبي قد أحدها إياها ، فباعها وباع أشياء أخرى كانت عنده فاجتمع له منها أربعمئة درهم .

وجاء في أنساب الأشراف للبلاذري : « فباع بغيراً له ومتاعاً فبلغ من ذلك أربعمئة وثمانين درهماً ، ويقال أربعمئة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها في الطيب ، وثلثها في المتاع ، ففعل » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيه الوحي ، فلما أفاق قال لي : يا أنس ، أتندري ما جاء به جبريل عليه السلام من صاحب العرش عز وعلا ؟ قلت : بآبي أنت وامي . ما جاءك به جبريل ؟ قال : قال لي : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تزوج فاطمة من علي ، فانطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدهم من الأنصار . فانطلقت فدعوتهم ، فلما أن أخذوا مجالسهم قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المنطاع لسلطانه ، المرهوب إليه من عذابه ، النافذ أمره في أرضه وسماائه ، الذي خلق الخلق بقدرته ، ونورهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبه محمد صلى الله عليه وسلم ، إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وأمرأ مفترضاً ، وحكماً عادلاً وحيراً جامعاً أوشج بها الأرحام ، ولرمها الأنام ، فقال الله عز وجل : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ

نسباً وصِهراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) ، وأمر الله يجرى إلى قضائه ، وقضاؤه يجرى إلى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من عليّ ، وأشهدكم أني روجت فاطمة من عليّ على أربعمئة مثقال فضة ، إن رضى بذلك ، على السنة القائمة والفريضة الواجبة .

فجمع الله شملهما ، وبارك لهما ، وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ، ومعادن الحكمة . وأمن الأمة . أقول قول هذا وأستغفر الله لي ولكم . تناقل الناس هذه الخطبة اللبقة - وكانت حديث الأندية والمجالس وما أنكر الناس شيئاً من هذا الأمر لأنه أمر طبيعي في أنظارهم وقد كانوا يتوقعونه - ويتظنون أمر الله فيه ، فعلى أول من أسسم وعليّ أول من صلى وعليّ أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله وليس حديث الهجرة وميئته على فراش النبي ببعيد فإن هذا الزواج وقع بعد الهجرة بشهرين - والله لا محالة - سيختار للزهاء من أصحاب رسول الله من كان يتصف بهذه الصفات البارزة التي اختص بها علي وكان هذا الوحي من الله تعالى العلي القدير أكبر مكافأة له على موقفه في ميئته على الفراش الذي حفظ به النبي وحفظ بحفظه الإسلام دين الله الذي أرسل فيه النبي مبشراً ونذيراً .

وكان عليّ رضى الله عنه غائباً في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد بعثه فيها ، ثم أمر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بطبق فيه تمر ، فوضع بين أيدينا ، وأقبل عليّ رضى الله عنه ، فبسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا عليّ إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة ، وإني قد زوجتكها على أربعمئة مثقال فضة . فقال عليّ : رضيت يا رسول الله ، وخرّ الإمام عليّ

ساجداً شكراً لله . فلما رفع رأسه قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لكما ، وعليكما ، وأسعد جدكما ، وأخرج منكما الكثير الطيب » .

وعن ابن مردويه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى : تكلم خطيباً لنفسك : فقال : « الحمد لله الذى قرب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد الجنة من يتقيه ، وأنذر بالنار من يعصيه ، نحمده على قديم إحسانه وأياديه ، حمد من يعلم أنه خالقه وباريه ، ومحميته ومحبيه ، وسأله عن مساويه ، ونستعينه ونستهديه ، ونؤمن به ونستكفيه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم صلاة ترفله وتحظيه ، وترفعه وتنصطفيه ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجنى ابنته فاطمة على خمسمائة درهم ، فاسألوه واشهدوا » .

قال رسول الله عليه وسلم : قد زوجتك ابنتى فاطمة على ما زوجك الرحمن جل جلاله ، وقد رضيت بما رضى الله تعالى ، فنعم الختن أنت ، ونعم صاحب أنت وكفاك برضا الله تعالى رضا .

قال أنس : والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب .

وإلى زوجها بوحى من الله يقول الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه :

أتى الوحى أن تجلى عروساً لحيدر

فيا شرفاً أضحى به الكون مفترأ

ليهن بنيه المجد نظم هكذا

نبي الهدى فاطرب وحيدر والزهرا

وبكل ما للبساطة من معنى تم الزواج الميمون . وقيل إن الصداق كان درعاً حطمية باعها الإمام عليه السلام بأربعمائة وثمانين درهماً ، وأتى بالمبلغ

ووضعه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم . ووزع النبي صلى الله عليه وسلم
المبلغ على النحو الآتي :

١٦٠ درهماً لشراء العطور

١٦٠ درهماً لشراء الثياب

٦٦ درهماً لمتاع البيت

٩٦ درهماً دفعها إلى أم سلمى لتتقيه لديها

وكان أن كلف بلالا لشراء العطور ، كما أنه اختار هيئة لشراء
الثياب والمتاع من بينهم أبو بكر وعمار بن ياسر ، فشترت الهيئة الجهاز التالي :
قميصاً بسبعة دراهم - خماراً بأربعة دراهم - قطيفة سوداء خيرية -
سريراً ملفوفاً بشریط من الخوص - فراشين من خيش مصر حشو أحدهما
ليف وحشو الآخر من صوف الغنم - أربع مرافق (متكآت) من آدم
الطائف حشوها إذخر ، وهو نبات طيب الرائحة سترأ رقيقاً من الصوف
حصيراً هجرياً - رحي يد - مخضباً من نحاس لغسل الثياب - قرية
صغيرة - قلدحاً من خشب - قرية صغيرة لتبريد الماء مطهرة (إناء
مزفت) - جرة خضراء - كيزاناً من خزف - بساطاً من الجلد - عباءة قطونية

وحملت الهيئة هذا الجهاز إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما عرض
عليه جعل يقلبه بيده ويقول « بارك الله لأهل البيت » وفي رواية أخرى أنه
قال : « اللهم بارك لقوم جلّ آيتهم الخرف » .

أما الإمام عليّ عليه السلام فقد اقتصر إعدادة لبيت الزوجية على
ما يلي :

فرش حجرة النوم بالرمال الناعم - نصب خشبة من حائط إلى حائط -

إهاب كبش ومخدة ليف وضعها على الأرض منشفة علقها على الحائط -
وضع على الأرض قربة ماء ومنحلا لنخل الدقيق .

هذه الصورة الناصعة من تزويج الزهراء تنقلنا إلى المبدأ الإسلامى
العظيم فى التخفيف عن كاهل الأزواج بالنسبة إلى المهور والإعداد لبيت
الزوجية وهو الحل الحاسم لكثير من المشكلات الاجتماعية الجنسية التى
يوضح العالم المتمدن منها .

أجل : بهذه الصورة البسيطة تم التزويج . . .

وفى ليلة الرفاف أبى الرسول صلى الله عليه وسلم بيغلتة الشبَاء ، وثنى
عليها قطيفة ، وقال لفاطمة : اركبى فأركبها ، وأمر سلمان أن يقود بها ،
ومشى صلى الله عليه وسلم خلفها ، ومعه حمزة وعقيل وبنو هاشم مشهرين
سيوفهم ، وأمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يعضين
فى صحبة فاطمة ، وأن يفرحن ويرجزن ويكبرن ويحمدن ولا يقلن
ما لا يرضى الله ، ونساء النبى صلى الله عليه وسلم معها ، فأنشأت أم سلمة
نرجز وتقول :

سرن بعون الله جارأتى	واشكرته فى كل حالات
واذكرن ما أنعم رب العلا	من كشف مكروه وآفات
فقد هدانا بعد كفر وقد	أنعشنا رب السماوات
وسرن مع خير نساء الورى	تعدى بعمات وخالات
يا بنت من فضله ذو العلا	بالوحى منه والرسالات
ثم قالت عائشة :	

يا نسوة استرن بالمعاجر	واذكرن ما يحسن فى المحاضر
------------------------	---------------------------

واذكرن رب الناس إذ خصّصا
والحمد لله على أفضاله
سرن بها فالله أعلى ذكرها
وخصها منه بطهر طاهر

ثم قالت حفصة رضى الله عنها :

فاطمة خير نساء البشر
فضلك الله على كل الورى
زوجك الله قتي فاضلا
فسرن جارأتى بها فانها
ومن لما وجه كوجه القمر
بفضل من خص بآى الزمر
أعنى علياً خير من فى الحضر
كريمة عند عظم الخطر

ثم قالت معاذة ، واسمها كبشة بنت رافع ، وهى أم سعد بن معاذ
الأنصارى الأوسى رضى الله عنهما :

أقول قولاً فيه ما فيه
محمد خير نبي آدم
بفضله عرفنا رشدنا
ونحن مع بنت نبي الهدى
فى ذروة شامخة أصلها
وأذكر الخير وأبدبه
ما فيه من كبر ولاتيه
فالله بالخير يجازيه
ذو شرف قد مكنت فيه
فما أرى شيئاً يدايه

وعن بلال بن حمامة قال : « طلع علينا النبي صلى الله عليه وسلم

ذات يوم ووجهه مشرق كدارة القمر ، فقام عبد الرحمن بن عوف فقال :
يا رسول الله ، ما هذا النور ؟ فقال : بشارة أتتني من ربي فى أخى وابن عمى
وابنتى ، فإن الله زوج علياً من فاطمة ، وأمر رضوان خازن الجنان فهز شجرة
طوبى فحملت رقاعاً - يعنى صكاً كاً - بعدد محبى أهل بيتى ، وأنشأ من

تحبها ملائكة من نور ، ودفع إلى كل ملك صكاً ، فإذا استوت القيامة بأهلها نادى الملائكة فى الخلائق ، فلا تلقى محمداً لنا أهل البيت إلا دفعت له صكافيه فكأكه من النار ، فأخى وابن عمى وابنتى بهم فكأك رقاب رجال ونساء من أمتى من النار .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا شجرة ، وفاطمة فرعها ، وعلى لقاحها ، والحسن والحسين ثمرتها ، وشيعتنا ورقها ، فالشجرة أصلها فى جنة عدن ، والأصل والفرع واللقاح والثمر والورق فى الجنة » .
ولأحد الشعراء فى هذا المعنى قوله :

يا هذا دوحة فى الخلد ثابتة ما مثلها نبت فى الخلد من شجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة ثم اللقاح على سيد البشر
والهاشميان سبطاه لما ثمر والشيعه الورق الملتف بالثمر
إني بحبهم أرجو النجاة عداً والفوز فى زمرة من أفصل الزمر
هذا مقال رسول الله جاء به أهل الرواية فى العالى من الخبر
وفى رواية أن الرسول دخل على الزهراء فوجدها تبكى ، فقال : مالك تبكين يا فاطمة ؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً ، وأفضلهم حِلماً ، وأولهم سلماً .

ويعلق الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد على بكاء السيدة الزهراء - فيقول : « فإذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد وجد الزهراء باكية ، وليس فى ذلك غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقعها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقها

أمها وهي حبيبة صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وإلطفها لها في رعايتها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال في غربة من الأم ، ومن البيت الذي لزمها فيه ، ومن البلد الذي يحتويه - فإن جهدنا أن نتخيل أن فتاة لاتبكي حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقرب من اليوم الفاصل بين معيشتها في كنف أبيها ، ومعيشتها في غير كنفه ، فموضوع الغربة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ولا سية من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ، ومثل النبي صلى الله عليه وسلم الذي كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم ، وأنه كان أباً مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك المخاطر في ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه إلا عامداً عالماً بما يلعبه في النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بافتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام :

« مالك تبكين يا فاطمة ؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً ، وأفضلهم حلماً ، وأولهم سلماً » .

ويكاد يكون من المتفق عليه أن الزهراء قد استشيرت في زواجها ، على عادة النبي صلى الله عليه وسلم في زواج بناته ، كما جاء في مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يدكرك ، فإن سكنت أمضى الزواج ، وإن نقرت السر علم أنها تأباه وفي طبقات ابن سعد : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتح (أى على على ليلة زفافه) ، فخرجت إليه أم أيمن ، فقال : أتم أخى ؟ فقالت : وكيف يكون أخاك ، وقد أنكحته ابنتك ؟ قال : فإنه كذلك . ثم قال : أأسماء بنت عميس ، قالت : نعم ، قال : جئت تكرمين بنت رسول الله ، قالت : نعم ، فقال لها خيراً ، ودعا لها .

وروى أنه قال : اللهم إنهما أحب إليّ فأحبهما ، وبارك في ذريتهما ، واجعل عليهما منك حافظاً ، وإني أعيدهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم ، ودعا لفاطمة فقال : أذهب الله عنك الرجس وطهرك تطهيراً .

وفي رواية أنه قال : اللهم هذه ابنتي وأحبّ الخلق إليّ ، اللهم وهذا أخي وأحبّ الخلق إليّ ، اللهم اجعله لك ولياً ، وبك حفيّاً ، وبارك له في أهله ، ثم قال : يا عليّ ، ادخل بأهلك ، بارك الله تعالى لك ، ورحمة الله وبركاته عليكم ، إنه حميد مجيد ، ثم خرج من عندهما ، فأخذ بعضا دقي الباب فقال : طهركما الله وطهر نسلكما ، أنا سلم لمن سالمكما وحرب لمن حاربكما ، أستودعكما الله ، وأستخلمه عليكما ، ثم أغلق عليهما الباب بيده الكريمة .

واختلف في سنّها وقت الزواج . فقيل : إن عمرها حين تزويجها تسع سنين أو عشر سنين أو إحدى عشرة سنة ، لأنها تزوجت بعليّ عليهما السلام بعد الهجرة بسنة . وقيل بستين

وفي المناقب ولدت فاطمة بعد النبوة بخمس سنين ، وأقامت مع أبيها عمكة ثمان سنين ، ثم هاجرت إلى المدينة ، فزوجها من عليّ بعد مقدمها المدينة بستين بعد بلدر ، وفي الاستيعاب كانت سنّها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ، وكانت سن عليّ إحدى وعشرين سنة .

والأرجح - كما يقول أبو الفرج الأصبهاني ، ورواه ابن حجر في الإصابة ، وابن سعد في الطبقات - أن تزويجها بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بخمسة أشهر . ويوم بنى عليّ بفاطمة كانت سنّها ثمان عشرة سنة . وإذا كانت الروايات قد اتفقت على أن الزهراء قد ولدت في

سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات ، فبذلك يكون أصبح الأخبار
أُنها عليها السلام قد تزوجت وهي في الثامنة عشرة .

وفي ظل الرسول عليه الصلاة والسلام انتظمت حياة سيدنا علي والسيدة
الزهراء عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، فقد كان رزق
علي من وظيفة الجندي وعطائه من فء الجهاد ، ولكن بالرغم من هذا كان
الإمام من انفق بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادماً تعينها أو تقوم عنها
بالعمل الشاق ، وكثيراً ما كان يحنّ الليل فيرقدان على فراشهما الخشن .
ويحاولان النوم فلا يجدان إليه سبيلاً لفرط ما يشعران به من البرد ، ويقبل
عليهما الرسول وقد انكمشا في غطاءتهما مقرررين ، إذا غطيا رأسيهما بدت
أقدامهما ، وإذا غطيا أقدامهما انكشف رأساها ، وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم ينصحهما بقوله : « كلمات علمنني جبريل ، تسبحان الله
في دبر كل صلاة عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبران عشراً . وإذا أويتما
إلى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين ، وتكبران
ثلاثاً وثلاثين . ويقول الإمام علي : « والله ما تركتهن منذ علمنيهن » .

على أن البيت الصغير ما لبث أن سعد بالذرية الصالحة ، وقد رزق
الأبوان الفقيران نصيباً صالحاً من البنين والبنات : الحسن ، والحسين ،
ومحسن ، وزينب ، وأم كلثوم ، وأسماء الحسن والحسين ومحسن من اختيار
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما زينب وأم كلثوم فسميتا باسم خالتيهما
إحياء لذكرى الراحلتين العزيزتين زينب وأم كلثوم اللتين فقدتهما السيدة
الزهراء رضي الله عنها بدون أن تنسى عطفهما عليها حين كانت طفلة في مدارج
الصبا . كما سبق وبينت ذلك بالتفصيل .

وسنرى إن شاء الله ، في الأجزاء القادمة مدى حب الرسول صلى الله عليه وسلم لسبطيه الحسن والحسين اللذين قال فيهما : « إنهما ابناى وابنا انتى ، اللهم إني أحبهما وأحب من يحبهما » ، وكان من عادة الرسول أن يبيت عندهم حيناً بعد حين ، ويخدم الأطفال بنفسه . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يترك مجلسه بين الصحابة ليتولى كل خلاف ينشأ بين الزوجين ، وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم رأى ذات مساء وهو يسعى إلى دار ابنته فاطمة بادية الهم والقلق ، فأمضى وقتاً هناك ، ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشراً ، فقال قائل من الصحابة : « يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك ؟ فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولم لا ! وقد أصلحت بين أحب الناس إلى ؟ »

وحدث أن ضاقت الزهراء بما تجد من شدة زوجها وصلابته فقالت له : « والله لأشكوكَنَّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وخرجت وعلى أثرها حتى جاءت أباهما ، فشكت إليه ما أنكرت من زوجها ، فتلطف الأب في ترضيها وأوصاها بالرفق بهلى . وقال الإمام وهو يصحب زوجته إلى بيتها : « والله لا آتى شيئاً تكرهينه أبداً » .

وحدث أن بلغ العتاب بين الزوجين ما يبلغه من خصومة بين زوجين ، حين نعى إلى فاطمة أن علياً يهيم بالزواج من بنت^(١) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وفي حسان على أنه إنما يجرى على مالوف عادة قومه في الجمع

(١) اسم بنت أبي جهل التي خطبها على « حورية » ، وقد أسلمت وبايعت ، ولا ترك على خطبتها تزوجها عتاب بن أسيد أمير مكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فولدت له عبد الرحمن ، فقتل يوم الجمل ، ولا أن تزوج عتاب تزوجها أبان بن سعيد بن العاص .

بين زوجتين وأكثر ، ويفعل ما أباحه له الإسلام من تعدد الزوجات ، بدون أن يخطر بباله أن هذا ما تنكره بنت نبي الإسلام . وذهبت الزهراء إلى أبيها باكية تقول : « يزعمون أنك لا تعضب لبناتك » . وأقبل الرسول صلى الله عليه وسلم على المسجد مغضباً ، وصعد المنبر تواً ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علياً ، ألا وإني لا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إنما فاطمة بضعة مني يريني ما رآها ، ويؤذي ما آذاها ، وإني أخوف أن تفتن في دينها » .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد فاطمة فقال : « من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة مني ، وهي قلبي ، وهي روعي التي بين جنبي ، من آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » .

ويؤيد المرحوم الأستاذ العقاد هذه القصة وإن كان غيره من المحققين ينفيها نفياً باتاً كما سرى بعد قليل ، ويقول العقاد في كتابه (فاطمة الزهراء والفاطميون) بأن الحياة الزوجية كانت بين الإمام والزهراء ، لم تتعرض لخلاف غير الذي أشار إليه من عزم الإمام على خطبة بنت أبي جهل ، وقد أوضح بأن هذه الخطبة جاءت في روايات مختلفة واحتمل المرحوم العقاد في أسبابها أنها [لعلها غضبة من غضبات عليّ على أنفة من أنفات فاطمة أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأبأها وإن أبأها العرف في حالة المودة والصفاء] .

كما تؤيد الدكتور بنت الشاطئ هذه القصة وتقول :

لكن كيف والإسلام يبيح تعدد الزوجات ، ومحمد صلى الله عليه

وسلم كان يجمع في بيته يومئذ بين زوجات ثلاث ، فبين عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الذي أعز الله به الإسلام ؟ كيف يحرم النبي ما أحله الله ، وينكر على ابن عمه ما لم ينكره على نفسه ؟ ليكن هذا الزواج مؤذياً لفاطمة ، أفلم تتعرض لمثلها بنتا أبي بكر وعمر ؟ وهل يأتي النبي أن يجوز على ابنته ما يجوز على كل مسلمة وهو القاتل في المرأة السارقة : « لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » ؟ وقد كان هذا الموقف من أصعب المواقف ، إنه موقف مملوء بالدقة والصعوبة والحرَج .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلم حق عليّ في الزواج ، ولكن الرسول في أبوته الرحيمة يؤذيه أن تروّع أحب بناته بضرة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية كهذه يعلم أنها لا قبل لها باحتمالها ، ثم إن علياً أراد أن يتزوج بنت « عمرو بن هشام المخزومي » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت عليّ بين بنت رسول الله وبنت عدوه ؟

ومن هو عمرو هذا ؟ هو أبو الحكم بن هشام ، أو هو أبو جهل ، الذي لم ينس الرسول والمؤمنون ما اقترف من آثام في اضطهاد الدعوة الإسلامية . فهو عدو الله الذي قال لقريش : « يا معشر قريش إن محمداً قد آبي إلا ما ترون من عيب آلهتنا ، وشم آباءنا ، وتسفيه أحلامنا ، وإني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر ما أطيق حملة ، فإذا سجد فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم » .

وهو هو القاتل مستهزئاً بالرسول : « يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله

الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً .
 أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ » فنزلت فيه الآية :
 (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) ،
 وهو الذي لقي حكيم بن حزام بن خويلد يحمل طعاماً يريد به عمته خديجة
 في محنة الحصار . فتعلق اللعين به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟
 والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، وأني أن يطلقه حتى اشتبكاً ،
 ونال أحدهما من صاحبه ، وفيه نزل قوله تعالى : (إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ
 كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلَى الْحَمِيمِ) .

وفي السيرة أنه هو الذي اعترض وفدًا من النصاري جاءوا مكة يستظلمون
 لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره من الحبشة ، فما جلسوا إليه واستمعوا
 له حتى آمنوا به ، فلقيهم إثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم : « حبيكم الله
 من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم ، لتأثرهم بخبر
 الرجل ، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقم دينكم وصدقتموه ، ما نعلم
 ركباً أحق منكم ! » .

وفي السيرة أيضاً : أنه هو الذي رأى لقريش قبيل الهجرة أن تختار
 كل قبيلة منها قتي شاباً جليداً نسياً ، ثم يعطى سيفاً صارماً ، فيعمدوا جميعاً إلى
 محمد ويضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فينفرق دمه في القاتل جميعاً .
 هذا هو السبب الذي من أجله ثار الرمول صلى الله عليه وسلم ، لأنه
 من غير المعقول أن تكون ابنة هذا الرجل ضرةً لفاطمة بنت النبی .

ولم يكن من المعقول أن يستبدل الإمام علي بالنبي أبا جهل بن هشام
 صهراً ، وليس علي هو الذي يؤذى نبيه وأباه وابن عمه في أحب بناته إليه ،

والتي قال لها صلى الله عليه وسلم : « إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك »
وهي التي قال فيها أيضاً : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين
في صعيد واحد ، ثم ينادى مناد أن الجليل حل جلاله يقول : نكسوا رؤوسكم
وعضوا أبصاركم فإن هذه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم تريد أن
تمر على النصارى » .

وعن أبي سعيد الخدري ، رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم مر في
السماء السابعة وقال : فرأيت فيها لمريم ولأم موسى وآسية امرأة فرعون ولخديجة
بنت خويلد قصوراً من باقوت ، وفاطمة بنت محمد سبعين قصراً من
مرجان أحمر مزين باللؤلؤ ، أبوابها وأسرتها من عود واحد .

هذه هي الرهراء التي يحبها الرسول ، كما رأينا فيها سبق . ونكرر أنه
لم يكن من المعقول أن تحتجج بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو
الله ببيت واحد .

وعن يحيى بن سعيد القطان ، قال : ذكرت عبد الله بن داود الحرثي
قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا آذن إلا أن يحب علي بن أبي طالب أن
يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، قال ابن داود : حرم الله على علي أن ينكح علي
فاطمة في حياتها لقول الله عز وجل : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ
عَنْهُ فَأْتِهَا) .

فلما قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا آذن لم يكن يحل لعلي أن
ينكح علي فاطمة إلا أن يأذن رسول الله ، قال : سمعت عمر بن داود
يقول : لما قال الرسول فاطمة بضعة مني يربيني ما راها ، ويؤذيني ما آذاها ،
حرم الله على علي أن ينكح علي فاطمة ، إذ أنه بكاحه عليها يؤذي الرسول ،

والله تعالى يقول : (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) .

بقى سؤال : هو متى هم الإمام على بالزواج على الزهراء ؟

صمت المؤرخون ورجال الحديث ، فلم يشيروا إلى موعد لخطبته ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، ولكننا نظمنا إلى أنها كانت في الفترة الأولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يستند دليل نقل ، وإنما يغرينا به فهمنا لطبيعة الموقف وتقديرنا أنه أقرب احتمالاً حين كانت فاطمة وعلى في مستهل حياتهما الزوجية لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يرض هو نفسه باحتمال ما كانت تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الأول .

وبهذا الاطمئنان يميل كثير من المؤرخين إلى تحديد الحادثة على وجه التقريب في العام الثاني من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج .

إلى هنا نكون قد وفيت هذه الحادثة حقها - ولكن كثيراً من المؤرخين والكتاب ينكرون هذا الحادث تماماً ويذكرون أنها رواية مزعومة لم يعرفها المؤرخون ، وفي مقدمة من يعارض هذا الحادث ولا يعترف به إطلاقاً العلامة الأستاذ الكبير محمد صادق الصدر ، ومن رأيه أن المسور بن مخرمة هو الذي ردد هذه الرواية . بل وافتعلها ، ومن حق أستاذنا محمد صادق الصدر أن أشير إلى رأيه ، ففيه من الحقائق والدفاع عن الإمام ما يجعلني قد أميل إلى رأيه ، فالإمام الذي بات متوشحاً بردة النبي فادياً الرسول بنفسه ، لا يعقل أن يقف من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بضعته مثل هذا الموقف .

وما روى عن المسور بن مخرمة من روايات عديدة والتي تشير إلى أن الإمام

على كان بصدد الخطبة والرواج في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ،
وفي حياة الزهراء ، فهو كثير ساذكره وأترك للأستاذ الكبير محمد الصدر
التعليق عليه :

١ - عن المسور بن مخزومة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على
المنبر وهو يقول : « إن بني هاشم بن المغيرة استأذوني في أن ينكحوا ابنتهم
على بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبي طالب
أن يطلق ابنتي ، وينكح ابنتهم ، فإني ابنتي بضعة مني يربيني ما رابها ،
ويؤذي ما آذاها » أخرجه الشيخان والترمذي وصححه ، وقال البخاري
عن المسور أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن فاطمة مني فمن أغضبها
أغضبتني » .

٢ وعن المسور أيضاً قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحطب
على منبره هذا « وأن يومئذ محتلهم فقال إن فاطمة مني وأنا أخوف أن تفتن
في ديبها . قال ثم ذكر صهرأ له من بني عبد شمس فأثنى عليه في مصاهرته
إياها فأحسن ، قال : حدثني فصدقني ، ووعدني فأوفاني ، وإني لست أحرم
حلالاً ، ولا أحل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ، وبنت
عدو الله في مكان ومجد أبداً .

٣ وعن المسور أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل وعنده
فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي
صلى الله عليه وسلم فقالت له إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لمساتك ،
وهذا على ناكح ابنة أبي جهل ، قال المسور فقام النبي صلى الله عليه وسلم
فسمعه حين تشهد ثم قال : أما بعد ، فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع

فحدثني فصدقتي ، وإن فاطمة بضعة مني ، وإنما أكره أن تفتنوها ، وإنه والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً : قال فترك على الخطبة ، أخرجهما الشيخان وأبو حاتم .

٤ - وعن المسور بن مخرمة أنه بعث إليه - أي الإمام بعث إلى ابن مخرمة - حسن بن حسن يحطّب ابنته فقال له فلتأني في العتمة فلقبه ، فحمد المسور الله عز وجل ، وأثنى عليه وقال : أما بعد فما من نسب وسبب ، ولا صهر أحب إليّ من نسبكم وصهركم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ، ويسطني ما يسطها ، وإن الأنساب يوم القيامة تقطع إلا نسي وبني وصهري » وعندك ابنته ، ولو زوجها لقصها ذلك ، فانطلق عاذراً له ، أخرجهم أحمد في المناقب .
الواقع أن هذا الكلام المفتعل الذي زوره المسور لا يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أن الإقدام على الخطبة من الإمام أمر مستحيل لا يمكن تصويره والزهرء في قيد الحياة .

فعلى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو صريح آية المباهلة ، فهل يعرض الرسول العظيم وهو ذو الخلق الكريم - بأخيه إذ يذكر غيره بالصدق ، والوفاء بالوعد ، وقد قال له كما يروى ذلك عمر بن الخطاب وابن عباس وغيرهما من الأصحاب أخصك يا علي : بالنبوة ولا نبوة بعدى ، وتحص بسبع ، ولا يحتاجك فيها أحد من قريش ، أنت أولهم إيماناً بالله ، ووفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسمهم بالسوية ، وأعدلهم في الرعية وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله منزلة .

فهل الذي كان أوفى الصحابة بعهد الله يكذب في الوفاء بوعد رسول الله

في أمر يعود إلى بضعته وهي أقرب الناس إلى نفسه ؟ ؟
وكيف يكون الإمام أقومهم بأمر الله ، وأعظمهم عند الله مزية وهو
لا يتورع - وحاشاه - عن الكذب ، وخيانة العهد ؟ ؟
ولا يحتاج الإمام أكثر من الإشارة لو فرضا - وفرض المحال ليس من
المحال - أنه عليه السلام كان بصدد الخطبة ؟ ؟

ولم يكتف المسور بما نقل عن الإمام من رغبته بالزواج من هنا وهناك
حتى جاء دور المسور نفسه فافترض أن الإمام أراد من المسور ابنته ، وأن
ابن مخزومة وعظه وذكره في الحديث المشهور « فاطمة بضعة مني » فرجع
عن الخطبة عاذرا ، وهذا من رزايا الإسلام فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ويتضح من الرواية الرابعة ومن قوله : « وعندك ابنة ، ولو زوجتك
لقبضها ذلك » إن الخطبة لابنته كانت في حياة الزهراء كما هو واضح .
ومن المعلوم أن عمر « ابن مخزومة » كان عند وفاة الرسول ثماني سنين
كما سيتضح بعد قليل من ملخص حياته .

وأن الزهراء عاشت بعد أبيها ستة أشهر على أشهر الروايات فيكون عمر
بطل الروايات المغوار ثماني سنين وستة أشهر ، فمتى تزوج المسور ومتى ولدت
له بنت وقد خطبها الإمام ؟ ؟

لا شك أن ابن مخزومة لم يتحدث عن هذه الخطبة في حياة الإمام ،
وإنما تحدث عنها بعد سنين وسنين في وقت قد ضاع فيه الحساب على الناس ،
وما عرف ابن مخزومة ، أنا سنقف له بالمرصاد بعون الله - بعد ألف ومئات
من السنين .

وقد تسور ابن مخزومة على قدسي مقام الزهراء عليها السلام إذ قال

ناسباً إلى النبي أنه قل : « إن فاطمة مني ، وأنا أخوف أن تفتن في دينها » وهذا واضح بأنه ليس مما يتفوه به النبي الكريم وهو القائل بأنها سيدة نساء العالمين ، ومن كانت بهذه المنزلة فكيف يتخوف عليها أن تفتن في دينها ؟ ! ثم هناك شيء آخر يوضح لنا افتعال هذه الأقوال ، فإن المسور يدعى أن الرسول كان يعلن هذه الأقوال على أعواد المنبر ، فلو صحت لقلها غيره ممن حضر ، مع العلم أن المسور قد انفرد بالنقل ، ولم تنقل عن غيره ممن كان منصرفاً عن الإمام .

وترجمة حياة المسور تعطى ضوءاً كاشفاً عن بعده عن الإمام وقربه من أعدائه مما يقرب إلى الدهن وضع هذه الأقوال . .

ونستخلص من ترجمته في (الاستيعاب) والإصابة عدة أمور :

١ - المسور ابن أخت عبد الرحمن بن عوف ، وأنه لم يزل مع خاله هذا مقبلاً ومديراً في أمور الشورى وعبد الرحمن موقفه من الإمام في الشورى معلوم وابن أخته على شاكلته .

٢ - « قبض النبي صلى الله عليه وسلم والمسور ابن ثمانى سنين » وأنه ولد بعد الهجرة بستين .

٣ - يقول في الاستيعاب : « وكان المسور لفضله ودينه وحسن رأيه تغشاه الخوارج وتعظمه ، وتنقل رأيه »

٤ - ويقول في (الإصابة) : « وكان مع خاله عبد الرحمن بن عوف ليالي الشورى وحفظ عنه أشياء ، ثم كان مع ابن الزبير فلما كان الحصار الأول أصابه حجر من حجارة المنجنيق فمات » .

٥ - يقول في (الإصابة) : « وأخرج البغوي من طريق أم بكر بنت

المسور. عن أبيها يقول : « مرني يهودى والنبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ وأنا خلفه فرفع ثوبه فإذا خاتم النبوة في ظهره فقال لي اليهودى ارفع رداءه عن ظهره فذهبت أفعل فنضح في وجهي كفاً من ماء » .

٦ - ويقول في (الإصابة) : « ومن طريق عثمان بن حكيم عن أبي أمامة بن سهل عن المسور أقبلت بحجر أحمله ثقيل وعلى إزار خفيف فانحل فم أستطع أن أضع الحجر حتى بلغت به موضعه ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم ارجع إلى ثوبك فخذ ولا تمشوا عرا » .

فالمسور كان حين روايته لهذه الأحاديث صغير السن لا تتجاوز سنه ثمانى سنين حين وفاة النبي ، وهو في هذه السن لا يعرف مواقع الكلام ، وبدل على قلة إدراكه مشيه عارياً بدون إزار كما يحدث هو عن نفسه ، وكذلك إقدامه على رفع ثوب رسول الله ممثلاً قول يهودى أمره بذلك ، وقوله « فرفع ثوبه فإذا خاتم النبوة في ظهره » كذب صريح لأن خاتم النبوة على الكتف الأيمن مما قام الإجماع عليه .

ثم قوله سمعت رسول الله يحطب على منبره هذا وأنا يومئذ محتلم كذب آخر ، فإن سنه كانت باتفاق المؤرخين ثمانى سنين عند وفاة النبي فلا يمكن احتلامه في هذه السن .

وقد تأول بعضهم قوله - وأنا محتلم - قال في (الإصابة) : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا محتلم » يدل على أنه ولد قبل الهجرة ، ولكنهم أطبقوا على أنه ولد بعدها ، وقد تأول بعضهم أن قوله محتلم من الحلم بالكسر ، لا من الحلم بالضم ، يريد أنه كان عاقلاً ضابطاً لما يتحملة ، وهذا خطأ لأن لفظ محتلم لم يؤخذ من حلم وإنما أخذ من احتلم كما هو واضح ، واحتلم

معناه أدرك وبلغ مبلغ الرجال .

على أنه لو سلمنا أنه أراد من قوله (محتلم) العقل والضبط فإننا نقول إن إبداء سوءه ، وإقدامه على رفع ثوب الرسول يدل على غباوته ، وضعف إدراكه ، وأنه لا يعي ما يقال له أو يقول .

أضف إلى ذلك أن سيرته توقته موقف المتهم في كل ما يحدث أو يقول حول الإمام عليه السلام ، فقد كان ملازمًا لخاله عبد الرحمن كما عرفت ، ولازم بعده ابن الزبير ، وابن الزبير قد أثر على أبيه فحواله من صديق للإمام ملازم إلى عدو مقاوم فما ظنك بالمسور وهو رفيقه وقرينه .

ثم لارم الخوارج المسور ، تعشاه ، وتعمل بآرائه ، كما ترى من تصريح ابن عبد البر وهل تثق به إلا لهذه الأقوال التي تدل بوضوح على انحرافه عن أهل البيت عليهم السلام ، فإن هذه الأقوال التي زعمها كانت في الواقع خارجة كلها عن المعقول ، وهي مسيئة كل الإساءة للرسول صلى الله عليه وسلم وللإمام على وللزهاء البتول .

انقضت السحابة التي ظللت أفق الزهراء حينًا لا نحدد مداه ، وعاد البيت أصنى جواً مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة ، فاطمة في الدار تقوم على خدمة زوجها ما وسعها الجهد ، وتتخلص شيئاً فشيئاً مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعلى إلى جانبها يذل لها من الحذب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح في جو المدينة الذي لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين ، ويحاول قدر ما أطاق أن يترفق بها ، ويروض نفسه على شيء من اللين واليسر ..

بلاغتها وفصاحتها :

أوتيت الزهراء ، رضى الله عنها ، كسائر أهل البيت حظاً عظيماً من الفصاحة والبلاغة ، فكلامها متناسب الفقر ، متشاكل الأطراف ، تملك القلوب بمعانيه ، وتجتذب النفوس بمحكم أدائه ومبانيه ، فهي في البيان من أغزر القوم مادة ، وأطولهم باعاً ، وأمضاهم سليقة ، وأسرعهم خاطراً ، وإنه ليتبين ذلك خاصة في خطبتها وكلامها في بيعة أبي بكر رضى الله عنه وخلافها معه بشأن « فذلك » .

وفي كتاب بلاغات النساء قال الإمام أبو الفضل أحمد بن طاهر :
 « لما اجتمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم « فذلك » وبلغ ذلك فاطمة لاثت حمارها على رأسها وأقبلت في لمة من حفدتها نظاً ذيوها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، حتى دخلت على أبي بكر ، وهو في حشد من المهاجرين والأنصار ، فنيطت دونها ملاءة ، ثم آنت أنه أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس ، فأمهلت حتى سكن نشيج القوم ، وهدأت فورهم ، فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاد القوم في بكائهم ، فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت :

الحمد لله على ما أنعم ، وله الشكر على ما أظم ، والثناء بما قدم ، من عموم نعم ابتدأها ، وسبوغ آلاء أسلمها ، وتمام نعم والاه ، جم عن الإحصاء عددها ، ونأى عن الجزاء أمددها ، وتفاوتت عن الإدراك أبددها ، ونديهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها ، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها ،

وثى بالنذب إلى أمثالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة جعل الإخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها ، وأثار في التذكير معقولا ، الممتنع من الأبصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ، ومن الأوهام كيفيته ، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امثلها ، كونها بقدرته ، وذرأها بمشيئته ، من غير حاجة منه إلى تكوينها ، ولا فائدة له في تصويرها ، إلا تثبيتاً لحكمته ، وتنبهياً على طاعته ، وإظهاراً لقدرته ، وتعبداً لبريته ، وإعزازاً لدعوته ، ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته ، ذيادة لعباده عن نعمته ، وحياشة لهم إلى حبه ، وأشهد أن أنى محمداً عبده ورسوله ، اختاره وانتخبه قبل أن أرسله ، وسماه قبل أن احتسياه ، واصطفاه قبل أن ابتعثه ، إذ الخلائق بالغيب مكنونة ، وبستر الأهلويل مصونة ، وبنهاية العدم مقرونة ، علماً من الله تعالى بمآل الأمور ، وإحاطة بحوادث الدهور ، ومعرفة بمواقع المقدور ، ابتعثه الله تعالى إماماً لأمره ، وعزيمة على إفضاء حكمه ، وإنفاذاً لمقادير حتمه ، فرأى الأمم فرقاً في أديانها ، عكفاً على نيرانها ، عابدة لأوثانها ، منكرة لله مع عرفانها ، فأثار الله تعالى بأبي محمد صلى الله عليه وسلم ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها ، وجلى عن الأنصار غمها ، وقام في الناس بالهداية ، وأقذهم من الغواية ، وبصرهم من العماية ، وهداهم إلى الدين القويم ، ودعاهم إلى الصراط المستقيم ، ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار ، ورغبة وإيثار ، فمحمداً صلى الله عليه وسلم عن تعب هذه الدار في راحة ، قد حفر بالملائكة الأبرار ، ورضوان الرب الغفار ، ومجاورة الملك الجبار ، صلى الله على أبي نبيه ، وأمينه على وحيه وصفيه ، وخيرته من الخلق ورضيه ،

والسلام عليه ورحمة الله وبركاته . (ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت) :
 أتم عباد الله نصب أمره ونهيه ، وحملة دينه ووجهه ، وأمناء الله على أنفسكم ،
 وبلغاؤه إلى الأمم ، وزعم حق له فيكم ، وعهد قدمه إليكم ، وبقية استخلفها
 عليكم ، كتاب الله الناطق ، والقرآن الصادق ، والنور الساطع ، والضياء
 اللامع ، بينة بصائر ، منكشفة سرائره ، متجلية ظواهره ، مغتبط به
 أشياعه ، قائد إلى الرضوان أتباعه ، مؤد إلى النجاة استماعه ، به تنال
 حجج الله المنورة ، وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة ، وبيئاته الجالية ،
 وبراهينه الكافية ، وفصائله المندوبة ، ورخصه الموهوبة ، وشرائعه المكتوبة ،
 فجعل الله الإيمان . تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر ،
 والزكاة تركية للنفس ، ونماء في الرزق ، والصيام تهيئة للإخلاص ، والحج
 تشييداً للدين ، والعدل تنيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً
 من الفرقة ، والجهاد عزاً للإسلام ، وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر
 معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة
 للعامة ، وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منسأة في العمر ،
 والقصاص حقاً للدماء ، والوفاء بالندى تعويضاً للمغفرة ، وتوفية المكايل
 والموازين تغييراً للبخس ، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس ،
 واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة ، وحرم الله
 الشرك إخلاصاً له بالربوبية ، (فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ) ، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
 الْعُلَمَاءُ) . ثم قالت عليها السلام : أيها الناس اعلموا أني فاطمة ، وأني
 محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أقول عوداً وبدعاً ، ولا أقول ما أقول غلطاً ،

ولا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطًا ، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ، فإن تعزوه وتعزوه تحمده أُنَى دُونِ نَسَائِكُمْ وَأَحَا ابْنِ عَمَى دُونِ رِجَالِكُمْ ، وَلَعِمَ الْمَعْرَى إِلَيْهِ فَبَنَعَ الرِّسَالَةَ ، صَادَعًا بِالْإِدَارَةِ ، مَائِلًا عَنِ مَدْرِجَةِ الْمُشْرِكِينَ ، صَارِبًا ثَبَجَهُمْ ، أَخَذَا بِكُظْمِهِمْ ، دَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، يَكْسِرُ الْأَصْنَامَ ، وَيَنْكُتُ الْحَامَ ، حَتَّى أَهْزَمَ الْجَمْعَ وَوَلَّوْا الدَّبِرَ ، حَتَّى تَفْرَى اللَّيْلُ عَنْ صَحْهِهِ ، وَأَسْفَرَ الْحَقَّ عَنْ مَحْضِهِ ، وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ ، وَخَرَسَتْ شَقَاتُ الشَّيَاطِينِ ، وَطَاحَ وَشِيطُ النِّفَاقِ ، وَانْحَلَّتْ عَقْدَةُ الْكُفْرِ وَالشَّقَاقِ ، وَفَهَّمَتْ بِكَلِمَةِ الْإِحْلَاصِ ، فِي نَفَرٍ مِنَ الْبَيْضِ الْحَمَاصِ ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حَفْزَةٍ مِنَ النَّارِ ، مَذَقَةُ الشَّارِبِ ، وَنَهْرَةُ الطَّامِعِ ، وَقَسَةُ الْعَجَلَانِ ، وَمَوْطِئُ الْأَقْدَامِ ، تَشْرَبُونَ النُّطْرُقَ ، وَتَقْتَانُونَ الْقَدَّ ، أَذَلَّةُ خَاسِئِينَ ، تَحَاوُونَ أَنْ يَتَخَفَفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ ، فَأَنْقَذَكُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ تَعَالَى بِأَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ اللَّتَا وَالْتَا ، وَبَعْدَ أَنْ مَيَّ بِهِمُ الرِّجَالُ وَذَوَّبَانِ الْعَرَبُ وَمِرْدَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ (كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ) .

وقالت : هذا كتاب الله بين أظهركم ، أموره ظاهرة ، وأحكامه زاهرة ، وأعلامه باهرة ، وزواجه لاثحة ، وأوامره واضحة ، قد خلفتموه وراء ظهوركم . أرغبة عنه تدبرون ، أم بغيره تحكمون ؟ (بِشَسِّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ، وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، وَأَنْتُمْ الْآنَ تَزْعُمُونَ أَنَّ لَا إِبْرَاهِيمَ لِي (أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ . وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) ، أَفَلَا تَعْلَمُونَ ؟ بَلَى ، قَدْ تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ أَنَّى ابْتَدَأَ . أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، أَغْلَبَ عَلَى إِرْثِي يَابْنَ أَبِي قَحَافَةَ ؟

أَيُّ كِتَابِ اللَّهِ أَنْ تَرِثَ أَبَاكَ وَلَا أَرِثَ أُنَى ؟ لقد جئت شيئاً فرياً ،
أَفْعَلِ عَمْدَ تَرَكْتَهُ كَذَابِ اللَّهِ وَبَدَلْتَهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، إِذْ يَقُولُ : (وَوَرِثَ
سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) ، وَقَالَ فِيمَا احْتَصَصَ مِنْ حَبْرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ :
(رَبُّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) ، وَقَالَ : (وَأَوَّلُو
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) ، وَقَالَ : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي
أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى) ، وَقَالَ : (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ
وَلَّا قَرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) ، وَرَعَمَتْ آلَا حِضْوَةَ لِي ، وَلَا إِرْثَ
مِنْ أُنَى ، وَلَا رَحِمَ بَيْسَا ، أَفَحَصَّكُمْ اللَّهُ آيَةً أَخْرَجَ بِهَا أَنْ صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَلَامٌ
أَمْ تَقُولُونَ أَهْلَ مِلَّتَيْنِ لَا يَتَوَارَثَانِ ؟ أَوَلَسْتُ أَنَا وَأُنَى مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ،
أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعَمُومِهِ مِنْ أُنَى وَمِي وَعَمِي ؟ فَذَوْنُكُمَا مَخْطُومَةٌ
مَرْحُولَةٌ تَلْقَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ ، فَعَمَّ الْحَكَمُ اللَّهُ ، وَالرَّعِيمُ مُحَمَّدٌ ، وَالْمَوْعِدُ
الْقِيَامَةُ ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ يَحْشُرُ الْمِصْطَلُونَ ، وَلَا يَفْعَلُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ : (لِكُلِّ نَبِيٍّ
مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُحْزِرُهُ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ) ،
(إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) . أَلَا وَقَدْ
قُلْتُ مَا قُلْتُ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنْ بِالْخَذَلَةِ الَّتِي حَامَرْتَكُمْ ، وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشْعَرْتَهَا
قُيُوبِكُمْ ، وَنَكَبَهَا فَبِضَّةُ النَّمَسِ ، وَبَثَّةُ الصَّدْرِ ، وَبَثَّةُ الْغَيْظِ ، وَتَقْدِمَةُ
الْحُجَّةِ ، فَذَوْنُكُمَا فَااسْتَقْوَاهَا دَبْرَةَ الظَّهْرِ ، نَقَبَةَ الْخَفِّ ، بَاقِيَةَ الْعَارِ ،
مُوسِمَةَ بَغْضَبِ اللَّهِ وَشَارَ الْأُتَدِ ، مُوصُولَةَ بَنَارِ اللَّهِ الْمَوْقِدَةِ ، الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى
الْأَفْتَدَةِ ، فَبِعَيْنِ اللَّهِ مَا تَفْعَلُونَ ، (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ،
وَأَنَا آيَةٌ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (فَاْعْمَلُوا إِنَّا نَاعْمَلُونَ وَانْتَظِرُوا
إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) .

والمشهور عن السيدة الزهراء ، رضى الله عنها ، أنها كانت قوية العارضة ، خطيبة بارعة إذا ما انتبرت المنابر هزت القلوب والمشاعر . وإن خطبها على جمهرة من المهاجرين والأنصار آية على ثبت بديتها وحضور ذهنها .

أما شعرها وإن لم يؤثر عنها إلا القليل ، فكان واضح النهج لا تكلف فيه ولا تعسف .

وقيل إنها رضى الله عنها صارت إلى قبر أبيها بعد موته صلى الله عليه وسلم ووقفت عليه وبكت وأنشأت تقول :

قل للمغيّب تحت أطباق الثرى	إن كنت تسمع صرختي وندائي
صبت على مصائب لو أنها	صبت على الأيام عدن لياليا
قد كنت ذات حمى بطل محمد	لا أختشى ضيماً وكان جماليا
فاليوم أخشع للدليل وأتقى	ضيماً وأدفع ظالمى بردائيا
فاذا بكت قمرية فى ليلها	شجناً على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤتى	ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا
ماذا على من شم تربة أحمد	ألا يشم مدى الزمان غواليا

وتمثلت السيدة الزهراء ، رضى الله عنها ، عند وفاة أبيها بهذه الأبيات :

قد كنت لى جبلا ألوذ بظله	فاليوم تسلمنى لأجرد ضاحى
قد كنت جار حمى ما عشت لى	واليوم بعدك من يرش جناحى
وأعص من طرفى وأعلم أنه	قد مات خير فوارسى وسلاحى
حضرت منيته فأسلمنى العزا	وتمكنت ريب المنون جراحى

وقالت أيضاً :

قلَّ صبرى وبان غنى عزائى بعد فقدى لخاتم الأنبياء
 يا عيني اسكى الدمع سحاً وتك لا تبغى بفيض الدماء
 يا رسول الإله يا خيرة اللا وكهف الأيتام والضعفاء
 قد بكتك الجبال والوحش والطير ر كذا الأرض بعد صبح السماء
 وبكاك الحجون والركن والمش مر يا سيدى مع البطحاء
 وبكاك الإسلام إذ صار فى النا س عريباً من سائر الغرباء
 لو ترى المنبر الذى كت تعلو ه علاه الظلام بعد الضياء
 وأخيراً لا غرابة فى فصاحتها وبلاغتها ، لأنها كما قدما - نشأت
 فى بيت الشوة ، تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، ثم انتقلت إلى بيت زوجها ،
 فعاشت حين تسمع الكلام من لإمام على رضى الله عنه ، الذى لم يختلف
 على بلاغته محب أو عدو ، وسمعت القرآن يرتل فى بيتها فى الصلوات ،
 وفى سائر الأوقات ، وتحدثت الناس فى زمانها بمشاهيرها لأبيها - كما قدما -
 فى مشيتها وحديثها وكلامها ، كما قالت السيدة أم المؤمنين ، عائشة رضى
 الله عنها : « كنت فاطمة أشبه الناس حديثاً وكلاماً برسول الله صلى الله
 عليه وسلم » ، وقد أيد السيدة عائشة فى المشاهدة بين الزهراء وأبيها صلى الله
 عليه وسلم الكثير من الثقات .

الزهراء وفلسفة الإسلام

... . فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تربيةً لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونداء في الرزق ، والصيام تشيئاً للإخلاص ، والحج تشييداً للدين ، والعدل تسييقاً للقلوب . وطاعتنا نظاماً للملة . وإمامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عراً للإسلام ، ودلاً لأهل الكفر والنفق ، وانصر معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة ، وبر الولدين وثيقة من السخط ، وصلة ذُرْجاء منسأة في العمى ومناه في العدد ، واقتصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالندى تعريضاً للمعقرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للحس . والنهي عن الحمر تربيةً عن الرخص ، وجتناب النقود حجاً عن اللعة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة ، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية ، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، وأطيعوا الله فيما أمركم به وبهاكم عنه . فيما يحثي الله من عباده العلماء (١) .

في هذا لمقطع الوضاء من الخطبة ترسم الزهراء الحقيقة الكبرى التي امتاز بها الإسلام عن سواه من الشرائع في كونه عقيدة ونظاماً ومنهجاً ، فهرم الحياة الإنسانية برومها ، وبرمج متطلبات النوع الإنساني بهيكل تشريعي ضخم ، طرق باب كل مشكلة من مشكلات الحياة الإنسانية ،

(١) الزهراء ، الأئمة عبد الزهراء عثمان

وتوفّر على حلها بما يتناسب والمصلحة ، وبما يتماشى والحكمة .

وهذه الحقيقة الكبرى التي امتاز بها منح الله تعالى قد أغفلها الكثيرون من أبناء الأمة الإسلامية تأثراً بالحضارة الغربية الغازية التي فصلت الدين عن الحياة .

ولا شك أن القارئ الكريم حين يستعرض هذه الفقرة الكريمة من خطبة الزهراء رضي الله عنها يتضح له أنها حين تحدثت عن فلسفة الإسلام وإطاره العام لم تكن تستهدف إقناع مخاطبيها : أن في الإسلام نظاماً يهذب الفرد ، وينظم الجماعة ، ويقم الدولة ، وإنما كان ذلك أمراً بديهياً في حديثها ، بل من الأمور التي لا يرتاب فيها مسلم مهما انخفضت درجة إيمانه بالإسلام يومذاك ؛ ولذا فإن الزهراء عليها السلام استعرضت معالم الإسلام وتعليماته كوسيلة لتبيان حقيقة أخرى ترتبط بالحقيقة الأولى ، إذ كان هماً أن تبين الأهداف السامية التي من أجلها كان التشريع الإسلامي بهذا الشكل لا بسواه ، بل إنها أرادت أن ترسم العلل التي من أجلها حددت معالم الرسالة الإسلامية بهذه الصيغة المعلومة لا بسواها .

وبعد ذلك قد يكون من الضروري أن نلمّ الإمامة سريعة بالمفاهيم الإسلامية التي جاءت في هذه الخطبة الكريمة ، وهذه التحفة التي منحها الزهراء أجيالنا الإسلامية المتعاقبة . . .

أولاً - الصلاة :

تستعرض الزهراء عليها السلام الحكمة في تشريع الصلاة ، فتلخصها في جملة قصيرة حيث تقول : « جعل الصلاة تزيهاً لكم عن الكبر » ، فالصلاة

في منطق الزهراء رفع للإنسان من حضيض التكبر إلى مستوى التواضع . إن الإسلام حين يقرر العبودية لله تعالى يقصد من وراء ذلك أن يحرر الإنسان ، فلئن بدأت الجولة بالعبودية لله وحده فإنها تنتهي بالحرية التامة التي تجعل الفرد لا يخضع لأية قوة مهما تكن عاتية ، والاعتراف بالعبودية لله سبحانه وتعالى يرسم للمسلم الواقعي صورة حياة مثالية متعددة الجوانب ، مطبوعة بطابع الخضوع المطلق للعزير الحكيم ، فهي ليست اعترافاً بالله كخالق للكون والحياة فحسب ، وإنما هي عملية يعلن الإنسان فيها أن الوجود كله لله سبحانه ، وأن الحاكمية المطلقة في خلقه له وحده ، فلا مشرع لهذا الإنسان غير الله سبحانه وتعالى ، فهو وحده الذي يعلم ما يصلحه وما يفسده وما يرفعه وما يضعه .

وبعد هذا الاعتراف بالله سبحانه وصفاته المقدمة يقف المرء أمام ربه بهذا اليقين المطلق ، ليسأله العون والهداية . وهذه العملية تتكرر خمس مرات في كل يوم ، لتكون مصدراً لتربية النفس والوجدان على الخضوع لله سبحانه والخضوع المستمر ، ولتطبيع حياة الإنسان كلها بطابع هذا الخضوع ، ومن ثم فإن تكرار هذه العملية يشكل مناخاً صالحاً لصقل نفسية المسلم ومشاعره صفلاً ينسجم وأوامر الله ونواهيه ، لينطلق المسلم بعدها وهو أكثر قدرة على تطبيق منهج السماء وحمله والتبشير به . وقد رسم القرآن الكريم هذه الحقيقة حين أعلن (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وهنا تتجلى الحقيقة التي تجعل من الصلاة مفتاحاً لخلق لون خاص من السلوك بعيد عن المتاهات والانحرافات والطيش والضيااع ، كما تخلق مناعة طبيعية لمواجهة جرائم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

وجعلت الزهراء مريضة الصلاة الفريضة الأولى التي تعقب الإيمان بالله سبحانه وتعالى . والسر في أن الزهراء تعدّ الصلاة عمية تهذيب من الكبر والخيلاء أن المرأة تشعر في قرارة نفسه أنه وكل موجود في هذا الكون البديع يقفون على صعيد لعبودية المطلقة لله وحده . والإنسان في الوقت الذي يستشعر العبودية لله وحده في نفسه يحس بالتحرك المطلق من كل عبودية لغير الله تعالى ، فاندس يعيشون في إطار يحمل معنى العبودية لله الكبير المتعال ، وفي الوقت نفسه يعيشون على صعيد واحد من الكرامة والسؤدد ، فلا بد إذن أن تلقى كل معالم خيلاء والتكبر من المجتمع الذي يعيش في إطار الرسالة الإسلامية الكبرى .

ثانياً - الزكاة :

وقد تعجب حين تسمع الزهراء عليها السلام تقول : « الزكاة تركية النفس وعاء في الرزق » ، فتقول : وكيف يكون أداء الزكاة تداً في الرزق في حين أن الفرد يبدل أمواله وينفقها ، والإنفاق عكس التواء . لكن العجب يزول إذا عرفنا النتيجة التي تحصل من مساعدة الضعفاء الفقراء ، وهي ارتفاع مستواهم الاقتصادي ، وبلوغهم مرحلة مناسبة من الإنعاش المادي ، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة القوة الشرائية عند أكبر عدد من أفراد المجتمع . ومن أوليات ما يتعلمه دارسو الاقتصاد أن ارياد القوة الشرائية عند الأفراد يؤدي إلى زيادة الإنتاج وزيادة الإقبال على السلع والخدمات الأمر الذي ينشئ بالفائدة والسعة في الرزق لجميع الأفراد ، أضف إلى هذا أن الله تعالى

وهو الرزاق الأول سيكافئ هؤلاء الذين ينفقون أموالهم في سبيله بأضعاف ما أنفقوا ، فيهيئ لهم وسائل التقدم والنجاح دائماً .

إننا إذا استقرنا أحوال الأفراد الذين يمدون يد العون إلى الفقراء والضعفاء بسخاء ، ويسهمون في المشاريع الخيرية ، ويؤدون ما عليهم من واجبات مالية ، نجد أن غالبيتهم يسرون في خط تصاعدي بالنسبة إلى الثروة وزيادة الدخل .

ثالثاً - الصوم :

وحيث أتت الزهراء عليها السلام على ذكر الصوم قالت : « والصيام تهيئة للإخلاص » متى يستطيع الفرد إثبات إخلاصه لله تعالى ؟ . . .
عندما ينجح في السيطرة على غرائزه وشهوته ويوجهها الوجهة المعقولة التي لا إفراط فيها ولا تفريط . وفي الصيام تتجلى على مظاهر ضبط النفس والسيطرة على زمام الشهوات ، فإن الإنسان - محض إردته - يمسك عن الطعام والشراب طيلة النهار ، وكذلك يمسك عن كثير من الأمور ، وبذلك يثبت إخلاصه لله تعالى .

رابعاً - الحج :

أما عن الحج فقد قالت عليها السلام : « والحج تشييداً للدين » .
إن هذا الواجب الإسلامي المقدس يهدف إلى أسمى الغايات وأعظم

المقاصد ، ذلك هو التقاء جهود المسلمين جميعاً ، وتبادل وجهات النظر فيما بينهم في المسائل والشئون التي تهمهم .

وجميع مناسك الحج ترمز إلى حقائق أعمق مما يتصوره الأفراد السذج ، فالطواف مثلاً حول البيت يمثل ضرورة دوران نشاط الفرد حول نقطة مركزية واحدة هي رضا الله تعالى ، وتعبيراً عن هذه المشاعر يطوف الفرد حول البيت ، ليؤكد تأسيس جميع أعماله وأفكاره وأقواله على أساس من رضا الله وإرادته .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون الحج تشييداً للدين ، فهو مؤتمر موسع يستوعب مئات الألوف من المسلمين كل عام ، كل يحاول أن يستفيد مما لدى أخيه المسلم من تجارب وآراء .

خامساً - العدل :

وعن العدل قالت عليها السلام : « والعدل تنسيقاً للقلوب » .

إن العدل أساس الاستقامة في النظام الاجتماعي ، وهو الضمان الوحيد لسيطرة الأمن والهدوء على جميع الناس .

إن التشريع العادل هو الجدير بالبقاء ، لأنه يعامل الناس جميعاً معاملة واحدة ، لا يميز فيها بين غنى وفقير ، وشريف وضعيف وقوى وضعيف .

القوى هو صاحب الحق في منطق الإسلام . . .

والضعيف هو المغلوب على أمره الذي لا يملك حجة على ما يذهب به

والشريف هو الذي يستغل مواهبه وطاقاته في الخير . . .

والوضعيف هو الذي لا يرتفع عن مستوى البهائم . . .

وبعد هذا كله هم أمام القانون سواء ، يقوم ميزان العدالة بالحكم فيما بينهم بالقسطاس المستقيم ، وهو أدعى للتآلف بين القلوب ، وتنسيقها ، كما قالت الزهراء .

سادساً - وجوب طاعة أهل البيت :

وهكذا تستطرد الزهراء عليها السلام في حديثها عن فلسفة الأحكام فتقول : « وطاعتنا نظاماً للملة » .

لا شك أن الأمة تحتاج إلى من يأخذ بيدها نحو شاطئ الخير والهداية دائماً . إنها لا تستغنى عن يقوم بدور الإرشاد والتوجيه ، والذي يقوم بهذه المهمة هم أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وعلى هذا الأساس فإن طاعة أهل البيت هي الركيزة الأولى في بناء النظام الإسلامي .

ومن هنا جاء الحث على إطاعتهم في القرآن الكريم ، حيث قال عز من قائل : (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ) .

سابعاً - الإمامة :

وتكملة لموضوع الطاعة تقول عن الإمامة : « وإمامتنا أماناً من الفرقة » .

إن الأئمة هم الأنوار الساطعة في الأرض ، وهم الذين يرشدون الناس إلى الأحكام الإسلامية ، ويجنبونهم المشكلات والأخطار التي تسبب لهم

الدمار والشلل . الأئمة - عليهم السلام - هم الأعلام الواضحة التي يستضيء بها الناس في مناعات الحياة .

ثامناً - الجهاد :

وهل يشك أحد أن « الجهاد عز الإسلام » كما قالت الزهراء عليها السلام ؟ إن الدولة - أمة دولة - تحتاج إلى قوة دفاعية تحصنها ضد اعتداء الأعداء وتجاوزهم .

وتشريع الإسلام للجهاد إنما هو تأكيد على ما عهدته البشرية من ضرورة تقوية المراكز الحساسة في الدولة منعاً للأعداء من إلحاق الأذى بالمواطنين .

وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) .

كما أكد الإمام على بن أبي طالب حين قال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لئام التقوى ، ودرع الله الحصينة » .

تاسعاً - الصبر :

وقالت عن الصبر : (والصبر معونة على استيجاب الآخر) . من البديهي أن طريق الإصلاح ليس معبداً بالأزهار والرياحين . بل تعترضه العقبات والعراقيل ، وهو مملوء بالمخاطر ، وعليه فلا بد على الفرد أن يواجه المشكلات برحابة صدر ، ويعمل على حلها بدقة وإتقان . هـ

يرر دور الصبر وأهميته حيث إنه يمنح الإنسان طاقة لمواصلة السير حتى النهاية ، ولذلك فتليعى أن يكون معونة على استيجاب الأجر من الله تعالى .

عاشراً - الأمر بالمعروف .

والأمر بالمعروف ، هذه الدعامة العظيمة ، قالت الزهراء عليها السلام عنه : « مصلحة عامة » .

أجل ؛ فإن قوام المجتمع إنما هو بتكاتف أفرادهِ ، وتواصيهِم بالحق والخير يحمل كل فرد من نفسه رقيباً على الآخرين ، يدعوهم إلى الترام العمل الصالح ، ويحثهم على السلوك المفاضل ؛ ولهذا أثره الكبير في تقدم المجتمع ، وانتشار الوعي بين أفرادهِ .

إن الأمر بالمعروف في منطق الزهراء عليها السلام - وهو لا يعدو أن يكون منطق الإسلام بالذات - يحقق أكبر مقدار ممكن من المصلحة للأمة .

كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية راعٍ والجميع مسئولون عن رعيته ؛ ولا ينبغي أن الشعور بالمسئولية أساس ضمان الحقوق لجميع الأفراد ، وأساس التقدم والسجاح .

حادى عشر - النهى عن المنكر :

ومن مستلزمات الأمر بالمعروف النهى عن المنكر ، وهما شقان لمدى واحد ، وعليهما ترتكز سلامة المجتمع وازدهاره .

كل فرد يحاول اقتلاع جذور الشر والفساد في المجتمع . . . وكل فرد يعمل على ردع الخارجين على الآداب والتعاليم الإسلامية بالأسلوب النافع . . .
كل فرد يدعو إلى الخير والفضيلة .

ثاني عشر - صلة الأرحام :

وإذ فرغ الإسلام من التأكيد على وحدة الأسرة وتماسكها انتقل إلى الأسرة الأخرى التي ترتبط بهذه الأسرة بروابط القربى والرحم ، فأخذ يؤكد على ضرورة صلة الأرحام . وحين تأتي الزهراء عليها السلام إلى هذا الموضوع تقول : « صلة الأرحام منسأة في العمر ومناة للعدد » .

أجل ؛ إن التواصل بين الأقارب ، وتعاطفهم ، ومساعدة بعضهم بعضاً من أهم عوامل الوفاء والطمأنينة في المجتمع .

ثالث عشر - الوفاء بالنذر :

تقول الزهراء : « الوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة » .
وإذ بنى الإنسان بالنذر الذي التزمه على نفسه مجاه الله ، فإنه يؤكد على طاعته لله تعالى ، ومعرفة حق خالقه عليه ، وهو عندئذ يكون مستوجباً مغفرته ورضوانه .

رابع عشر - نهية المكاييل والموازين :

وعن هذا الأمر أيضاً تحدثت الزهراء عليها السلام فقالت : « وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس » .

إن الإسلام يحارب الاستغلال ، ويحارب الغبن ، ويحارب البخس ...
إنه لا يرتضى إلا العدل . يريد من الأفراد جميعاً أن يعيشوا متضامنين متكاتفين . وإيفاء المكاييل والموازين يقوم بدور مهم في تحقيق هذه الغاية ؛
إنه لا يفسح مجالاً للبخس والغبن بل يعطى كل فرد حقه .

خامس عشر - النهى عن شرب الخمر :

أما عن حكمة النهى عن شرب الخمر فقد قالت سلام الله عليها :
« تنزيهاً عن الرحس » .

سادس عشر اجتناب القذف :

وعن الحكمة في اجتناب القذف من قِبَل المسلم قالت عليها السلام :
« حجاباً عن اللعة » .

أجل ؛ فالقذف يورث اللعة التي تنصب على كل من يحاول أن يتهم بريئاً ، أو يسب لآخر من المساوي ما ليس فيه .

سابع عشر - حرمة الشرك :

وَإِذْ أَتَى الزَّمْرُكَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَلَى ذِكْرِ الشَّرْكِ وَحَرَمَتِهِ قَالَتْ :
« وَحَرَّمَ اللَّهُ الشَّرْكَ إِخْلَاصًا لَهُ بِالرَّبُوبِيَّةِ » .

الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ يَسْتَمِرُّ تَوْحِيدُهُ وَعَدَهُ الشَّرْكَ بِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ (لَا يَخْفَى أَنْ تُشْرِكَ بِهِ وَيَغْتَبِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

ثامن عشر - وبر الوالدين وقاية من السخط :

هنا تلتفت الزهراء إلى الخلية الأولى التي يشأ منها المجتمع الإنساني -
هذه الخلية هي الأسرة -- ولا تتناول الزهراء الأسرة برمتها ، وإنما تتناول
الأمود الفقري ، والأساس الذي تستند عليه في بناء كيانها ، فتناولت
البر بالوالدين : الأب والأم - لما لهما من فاعلية ضخمة في بناء الكيان
الاجتماعي . وإن اختلف عمل الوالدين في إطار الأسرة فهناك تمازج عضوي
بين عملهما البناء ، فالوالد يتناول البيت من الخارج ، فيكده ويثابر لكسب
الرزق وإدخال السرور على أسرته ، والأم تتناول البيت من الداخل بحكم
تركيبها المسيولوجي ولنفسى والروحي ، فهي تحب الأطفال وتتولى رعايتهم ،
وتسهر لمصلحتهم ، وتدبر البيت من الداخل ، لتكتمل عمل الوالد الخارجي .
وحين يكون عمل الوالدين هذا شأنه على مر الأجيال والعصور ،
فلا بد للإسلام - وهو منهج الله الخالد - أن يقرم عملهما هذا ، فإذا به
يرفعهما إلى أعلى الآفاق : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ

وَلَا تَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . . .

عُيْشِرُطَ رَهْمَا وَرَعَايَتُهُمَا وَعَدَمُ إِيْدَاثُهُمَا بَادِي لِأُمُورٍ حَتَّى بِالْإِشَارَةِ أَوْ التَّنْصِيحِ .

وَبَدَّ يَقَرَّرُ الْإِسْلَامَ وَحُوبَ رَعَايَةِ الْوَدَّيْنِ فَقَدْ أَصْبَحَ عَقْرُوقُهُمَا ثَمَرًا مَحْظُورًا يَسْتَلْزِمُ عَصَبَ اللَّهِ وَسُخْطَهُ ، وَهَذَا السَّرُّ عِيْهِ رَاحَتِ الرَّهْرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَرْسِمُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ حِينَ أَعْلَنَتْ أَنَّ بَرَّ الْوَدَّيْنِ يَتَحَقَّقُ عَلَى يَدَيْهِ الْإِبْتَعَادُ عَنْ مَغْيَةِ سَخْطِ اللَّهِ وَعِصْيَةِ الْوَدِيِّ يَحْزِي بِنَدَامٍ وَسَوَازٍ .

تَاسِعُ عَشْرَ وَاتَّقْصَاصُ حَقِّهَا لِلدَّمَاءِ :

هَذَا تَرْسِمُ الرَّهْرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَقِيقَةَ كَرَمٍ مِنْ حَقَائِقِ الشَّرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ الرَّصِينِ . تَبَيَّنَتْ هِيَ مَفْهُومُ اتَّقْصَاصٍ ، وَرِسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِذْ كَانَتْ فِي أُسَاسِهَا دِينًا يَرَى لِنَفْسٍ ، وَيَصْتَلِ الْوَحْدَانَ ، وَيَقُومُ السُّبُوكَ . حَتَّى يَحْمِلَ الْمُسْلِمُ عَلَى تَطْبِيقِ مَتَطَلَّاتِ رِسَالَةِ نَصُورَةِ تَقَاتِيَّةٍ ، فَإِنَّهُ لَا يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لِمُجْتَمَعَ الْإِنْسَانِيِّ مَهْمَا رَتَمَعَ إِلَى مَسْتَوَى الْمُتَالِيَةِ وَالنَّسْلِ فِيهِ لَا يَخْلُو مِنْ عَظَمِيَّاتٍ يَهْمُهَا التَّلَاعِبُ بِمَقْدَرَاتِ الرِّسَالَةِ وَاتِّبَاعِهَا ، وَلِذَا وَضَعَ إِيَّاهُ جَانِبَ التَّرْبِيَةِ الَّتِي يَسْعَى عَلَى أَسَانِهِ رَصِيدٌ تَشْرِيعِيًّا مِثْلَ عَمَلِيَّةِ سَلَاحِيَّةٍ لِمَنْ يَحَاوِلُ سَلَاعِبَ مَقْدَرَاتِ الْأُمَّةِ وَمُسَدِّثِهَا الْقَوِيمِ ، وَفِي طَبِيعَةِ هَذَا الرِّصِيدِ التَّشْرِيعِيِّ رَسْمُ الْإِسْلَامِ نَزْدَ اتَّقْصَاصِ الَّتِي تَقْضِي بِالْمُعَاقَبَةِ بِالنَّمْلِ ، وَنَفْسٍ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَلِسَنَ بِاللِّسَنِ .

وَهَذَا التَّشْرِيعُ الْإِسْلَامِيُّ الرَّصِينُ يَحْسِبُ الْمَجْتَمَعَ مَاعَةً فَعَلِيَّةً عَلَى

مواجهة التلاعب والاعتداء ، سواء وقع ذلك خطأ أم عمداً .

وحين وضع الإسلام هذه القاعدة في دستوره فإنما وضعها حقاً لدماء أبنائه ، وحفظاً للتوازن والاستقرار في مجتمعه ، لأن الإنسان إذا وجد نظاماً يكفل له صدّ الاعتداء عليه ، يأخذ بثأره ، فإنه يابجأ إليه دوماً دون اللجوء لمفهوم الثأر الجاهلي ، أو الإخلال بالأمن الذي يؤدي غالباً إلى فتدان الهدوء والعطمانية ، وإلى تمزيق الوحدة الاجتماعية .

وهكذا أوضحت الزهراء رضي الله عنها فلسفة تشريع حكم القصاص ، فعبّرت عنه بأنّه حقن للدماء ، فهو الوسيلة الوحيدة التي تحقن الدماء على أساسها وتضامن حرمتها ؛ أما إذا ترك الحبل على الغارب للمعتدين بدون الاقتصاص منهم فقد وقعت الكارثة ، وقد فسر هذا السر كتاب الله العزيز بقوله : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) .

وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام :

لم تضحك السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم ، بل عُدَّت من البكاكين الستة في التاريخ : بكى آدم ندماً ، وبكى نوح قومه ، وبكى يعقوب ابنه يوسف ، وبكى يحيى خوف النار ، وبكت فاطمة أباه ، وبكت ابنتها زينبُ جميع بني هاشم ، وحزنت حزناً شديداً أثر على صحتها . والمرة الوحيدة التي ابتسمت فيها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم ، عندما نظرت - وهي على فراش الموت - إلى أسماء بنت عميس ، وبعد أن لبست ملابس الموت ، فابتسمت ، ونظرت إلى نعشها الذي عمل قبل وفاتها وقالت : « سترتموني ستركم الله » ، فكانت

هذه هي اللحظة الوحيدة التي رُئيت فيها مبتسمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

كانت الزهراء إلى جانب أبيها صلى الله عليه وسلم في مرضه لا تفارقه ، تعنى به ، وتخدمه ، وبشارفه الموت قال صلى الله عليه وسلم : « واكرباه » ، فأخذتها اللوعة ، وقالت في أنين ، ومن قلب حزين : واكرب أبتاه ، فأدركته صلى الله عليه وسلم عليها رقة ورحمة ، فقال لها ليهدي خاطرها : « لا كرب على أبيك بعد اليوم » .

ثم تعود فاطمة إلى نفسها وتذكر ما أسره إليها من حضور أجله ، وأنها أول أهله لحوقاً به ، وما بشرها به من قوله : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ؟ » فأخذت تهدي من روعها ، ولكنها لم تستطع أن تقف ما استبق من عبراتها ، فأخذت تمسح دموعها حتى لا يراها والدها صلى الله عليه وسلم فيحزبه جزعها ، ولكن آتت لها ذلك وهي أمام هول عظيم ، فهذا أبوها وحبيبها رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثقل عليه مرضه ، وفتحت له أبواب السماء ، وأقبلت عليه ملائكة الله عز وجل بروح من الله ورضوان ، تبشره بقاء ربه عز وجل ، وما أعده له من الوسيلة والدرجة العظيمة والمقام المحمود ، وما يلقاه في الخلد من نعم مقيم ، فلم يلبث صلى الله عليه وسلم أن صعدت روحه الكريمة الطاهرة المطهرة الراضية المرضية إلى ملئها الأعلى ، وإلى جوار رب العالمين ، فبكت فاطمة رضى الله عنها ، إذ فقدت أباه البر الكريم ، والرؤوف الرحيم ، وتغشاها الأسى والاكتئاب ، ولذعها الجوى ، وتولتها غصة وفجعة .

وقد روى السدى عن أشياخه ، قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم قالت فاطمة رضى الله عنها تندبه :

أَيُّ وَابْتِاهَ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ
جَهَ الْفَرْدُوسَ مَاوَاهُ مِنْ رَبِّهِ مَا أَدَاهُ
إِلَى جَبْرِيلَ نَعَاهُ

ولما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبلت على أنس بن مالك فقالت :
« يَا أَنَسُ ، كَيْفَ ضُابِتُ أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَحْتُو التُّرَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ »

ثم بكت ورثته قائلة :

اغْرَى آفَاقَ السَّمَاءِ وَكَوَرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرُونَ
فَالْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَثِيبَةٌ أَسْفًا عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرَّجْمَانِ
فَلِيكَ شَرْقُ الْبِلَادِ وَعَرْبُهَا وَلِنِكَ مَضَرٌ وَكُلُّ يَمَانٍ
وَلِيكَ الصُّودُ الْمُعْظَمُ جَرَدُهُ وَابْيَتَ دُو الْأَسْتَارِ وَالْأَرْكَانِ
يَا حَتَمَ الرَّمْلِ الْمَسَارِكِ صَوْنُهُ صَلَّى عَلَيْكَ مَزَلُ الْقُرْآنِ
ثُمَّ أَخَذَتْ قَبْضَةً مِنْ تُرَابِ الْقَبْرِ فَجَعَلَتْ عَلَى عَيْنَيْهَا وَوَجْهَهَا ،
ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ :

مَاذَا عَلَى مَنْ شِمَ تَرَبَةً أَحْمَدُ أَلَّا يَشِمَ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا
صَبَتْ عَلَى مَصَائِبَ لَوْ أَنَّهَا صَبَتْ عَلَى الْأَيَّامِ عَدَنَ لَبَايَا
وَقَالَتْ عَلَى قَبْرِهِ :

إِنَّا فَعْدُنَاكَ فَقَدْ الْأَرْضُ وَابِلُهَا وَعَابَ مَدَعَبَتْ عَنَا الْوَحْيُ وَالْكَتَبُ
فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ الْمَوْتُ صَادِفَنَا لَمَّا نَعَيْتَ وَحَالَتْ دَوْلُكَ الْكَتَبُ
وقد قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يعرى السيدة فاطمة :

أفاطم إن جرعت فذاك عذر وإن لم تجزعي ذلك السيل
 فتبر أهلك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول
 وكانت أم أيمن حاضرة الرسول صلى الله عليه وسلم من أشد الناس حزناً
 وهلعاً ، وكانت تبكي حتى تصعق مكانها ، لا تحير كلاماً ، ولا تستطيع
 حراكاً ، حتى إذا عاد إليها روعها . وسئلت عن بكائها وحزنها ، قالت :
 لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت ولكني أبكي على الوحي
 إذ انقطع عني من السماء .

ولقد عاشت السيدة الزهراء بعد الرسول عليه الصلاة والسلام خمسة
 وسبعين يوماً . وعن الصادق رضى الله عنه : مائة وخمسة وسبعين يوماً ،
 لم تر كاشرة ولا صاحكة ، تأثرت قبور الشهداء في كل جمعة مرتين :
 الاثنين والخميس ، فتقول : ها هنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 وها هنا كان المشركون ، وفي رواية عن الصادق عليه السلام أنها كانت
 تصلّي هناك وتدعو حتى ماتت . وروى عن الباقر عليه السلام قال :
 « ما رأيت فاطمة صاحكة قط منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم
 حتى قبضت »

وفي السيرة النبوية . عاشت فاطمة بعد أبيها ستة أشهر ، فما ضحكت
 تلك المدة .

وروى أنها ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس ، ناحلة الجسم ، ملهدة
 الركن ، باكية العين ، محترقة القلب يغشى عيني ساعة بعد ساعة ،
 وتقول لوئديها : أين أبوكما الذي كن يكرمكما ويحملكما مرة بعد مرة ؟
 أين أبوكما الذي كن أشد الناس شفقة عليكما ، فلا يدعكما تمشيان على

الأرض ، ولا أراه يفتح هذا الباب أبداً ، ولا يحملكما على عاتقه كما كان يفعل ؟

وروى أنه لما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم امتنع بلال عن الأذان وقال : لا أؤذن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت ذات يوم : أشتى أن أسمع صوت مؤذن أرى بالأذان ، فبلغ ذلك بلالا رضى الله عنه ، فأخذ يؤذن ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر ، ذكرت أباها وأيامه ، فلم تتمالك نفسها من البكاء ، فلما بلغ قوله : وأشهد أن محمداً رسول الله ، شقت فاطمة رضى الله عنها ، وسقطت لوجهها ، وغشى عليها ، فقبل لبلال : أمسك ، فقد فارقت ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة الدنيا ، وطوا أنها قد ماتت ، فلم يتم الأذان ، فأفاقت ، فسألته إتمامه ، فلم يفعل وقال لها : يا سيدة النساء ، إني أخشى عليك مما تنزلينه بنفسك إذا سمعت صوتى بالأذان ، فأعفته من ذلك .

وعن علي رضى الله عنه قال : غسلت النبي صلى الله عليه وسلم في قميصه ، فكانت فاطمة رضى الله عنها تقول : أرى القميص ، فإذا شمته غشى عليها ، فلما رأيت ذلك منها غيبته .

وفى رواية أن علياً رضى الله عنه بنى لها بيتاً فى البقيع سمي بيت الأحران ، وهو باق إلى هذا الزمان ، وهو الموضع المعروف بمسجد فاطمة فى جهة قبة مشهد الحسن والعباس ، وإليه أشار ابن جبير بقوله : « وبلى القبة العباسية بيت فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ويعرف ببيت الحزن » ، يقال إنه هو الذى أوتى إليه ، والتزمت الحزن فيه منذ وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم .

السيدة فاطمة والخلافة وميراث الرسول :

كانت السيدة فاطمة ترى حق الإمام عليّ في الخلافة ، وترى أن قرابة النبي صلى الله عليه وسلم أحقّ المسلمين بالخلافة ، وأن بلاء عليّ في الجهاد ، وعلمه المشهود به ، يؤهلانه لمقام الخلافة . وقد كانت الزهراء أيضاً صريحة الرأي ، حرة التفكير ، صارمة الأمر ، وما كانت رضى الله عنها لتترجح عن رأي اقتنعت به ورأته صواباً ، وكان رأيها الذي لا تحيد عنه أن علياً أحقّ بالخلافة من غيره ، فهو ربيب النبي ، وابن عمه أبي طالب ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبو الحسين ريحاني الرسول ، وأول الناس إسلاماً ، وأطولهم في الجهاد باعاً ، وفقى قريش شجاعة وعلماً .

واعترلت الزهراء الناس ، ثم رأت أن تؤدي واجبها نحو زوجها ولديها ، فحملها عليّ فوق دابة وخرج بها ليلاً ، فطافت بمجالس الأنصار مجلساً مجلساً تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن فيما يطلب ، فأجابوا جميعاً : « يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لأبي بكر ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا لما عدلنا به أحداً » .

فكان الإمام يقول : « أفكنت أدع رسول الله في بيته ولا أدفنه وأخرج أنازع في سلطانه ؟ » ، وكان رد الزهراء : « ما صنع أبو الحسن إلا ما ينبغي ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطلبهم » .

ولم يكن هذا رأي الزهراء وحدها ، بل أيد هذا الاتجاه طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى ، فاجتمعوا عندها ، واجتمعوا في غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أبايعون أم يختلفون ؟

وبعد مناقشات بينهم وبين أبي بكر وعمر سمرت الفتنة عن معضدها ،
وتكشفت الأمور . فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على الإمام علي ،
ولج الإمام علي أن أبا سفيان يقصد الوقعة ، فأعرض عنه الإمام ، وكان
عظيماً عندما قال له : « إنك تريد أمراً لمنا من أصحابه » ، فلما يش
من هذا الباب طرق باباً آخر يلج منه إلى مأربه ، وذهب إلى العباس
يقول له : « مدد يدي يا أبا الفضل أبايعك ، فلا يختلف عليك القوم
ثم يقول : « إنك والله لأحى بميراث اس أخيك » ، فبرده العباس كما
رده على .

وعود إلى السيدة فاطمة فقول : إنها تمسكت بحقها كاملاً ، وعلمت
بالمناقشات التي دارت بين زوجها والصديق وعمر ، فاعتكفت في منزلها ،
وامتنعت عن مقابلة الصديق ، إلى أن قال عمر لأبي بكر انطلق بنا إلى
فاطمة ، فإننا قد أغضبناها . واستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما ، فأتيا علياً
فكلماهما ، فأدخلهما عليها ، فلما قابلاها حولت وجهها إلى الحائط ،
فسلما عليها ، فردت عليهما السلام بصوت خافت . وتكلم أبو بكر فقال :
« يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ
من قرابتي ، وإنك لأحب إليّ من عائشة ابنتي ، والله لوددت يوم مات أبوك
رسول الله صلى الله عليه وسلم أني مت ولا أبقي بعده أفتريني أعرفك وأعرف
فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
ألا إني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا نورث ،
ما تركناه فهو صدقة » . فقالت أرايتكما إن حدثكما حديثاً عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتعلان به ؟ قالوا : نعم ، فقالت : نشدتكما الله ،

لَمْ تَسْمَعْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : رِضَا فاطمة من رِضاي ،
 وَسَخَطُ فاطمة من سَخَطِي ، فَمَنْ أَحَبَّ فاطمةَ بَنِي فَقَدْ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ
 أَرْضَى فاطمةَ فَقَدْ أَرْضَانِي ، وَمَنْ أَسَخَطَ فاطمةَ فَقَدْ أَسَخَطَنِي ؟ قَالَا :
 نَعَمْ ، مَجْعَدَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَتْ : فَإِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
 وَمَلَائِكَتَهُ أَنَّكُمَا سَخَطْتُمَانِي وَمَا أَرْضَيْتُمَانِي ، وَلَيْسَ لِقَبْتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ لِأَشْكُونَكُمَا إِلَيْهِ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ سَخَطِهِ وَسَخَطِكَ يَا فاطمة .
 ثُمَّ انْتَحَبَ أَبُو بَكْرٍ يَسْكِي حَتَّى كَادَتْ نَفْسُهُ أَنْ تَرْتَفِقَ ، وَهِيَ تَقُولُ : وَاللَّهِ
 لَأَدْعُوَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْكَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَصْلِيهَا . ثُمَّ خَرَجَ بِأَكْبَا فَاجْتَمَعَ
 بِهِ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهُمْ : بَيْتُ كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَعَانِقًا حَبْلُهُ ، مَسْرُورًا
 دُفَعَتْ ، وَتَرْكَمُونِي وَمَا أَنَا فِيهِ ، لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِكُمْ . أَقْبِلُونِي بَيْعَتِي .

قَالُوا : يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِنْ هَذَا الْأَمْرُ لَا يَسْتَقِيمُ
 إِلَّا بِكَ ، وَتُتِ أَعْلَمْنَا بِذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ هَذَا لَمْ يَقُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دِينَ ،
 فَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْلَا ذَلِكَ وَمَا أَخَافُهُ مِنْ رِخَاوَةِ هَذِهِ الْعُرْوَةِ مَا بَيْتَ لَيْلَةٍ وَلِي فِي
 عِشْقِ مَسْجِدِ بَيْعَةٍ بَعْدَمَا سَمِعْتُ وَرَأَيْتُ مِنْ فاطمة .

فَمَا مَسْأَلَةُ (فَدَكَ) ؟ الَّتِي ثَارَ حَوْلُهَا الْخِلَافُ :

وَمِنْ خِصَصِ " تَارِيخِ فَدَكَ " كَمَا جَاءَ فِي كِتَابِ " فَدَكَ فِي التَّارِيخِ " :

(١) يَذْكُرُ خَوْهَرِي فِي السَّقِيَّةِ وَفَدَكَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقْدَرُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، لِأَنَّ الزُّبُرَةَ
 تَدْرِكُهَا عَمْرٌدٌ أَجْلَى هَازِي فَدَكَ إِلَى شَافٍ عَثَّ إِلَيْهَا مِنْ يَتِيمٍ لِلْأُمُولِ ، فَقَوَّموْا رِصْنَ فَدَكَ وَخَلَعُوا
 دُخْدُخَهَا عَمْرًا ، وَدَفَعُوا إِلَيْهَا مِائَةَ نَصْفِ نَدَى لَهُمْ . وَكَانَ مَنَعُ فَدَكَ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَعْطَاهُمْ . هَذَا
 مِنْ مَدَائِلِهَا مِنْ عَرَفِي .

لسباحة السيد محمد باقر الصدر - أن « فذكاً » قرية في الحجاز ، بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة ، وهي أرض يهودية في مطلع تأريخها المأثور ، وكان يسكنها طائفة من اليهود ، ولم يزلوا على ذلك حتى السنة السابعة حيث قذف الله الرعب في قلوب أهلها ، فصالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف من فذك . وروى أنه صالحهم عليها كلها .

وابتدأ بذلك تأريخها الإسلامي ، فكانت ملكاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، ثم قدمها لابنته الزهراء ، وبقيت عندها حتى توفى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أصبحت من مصادر المالية العامة في عهد الخليفة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه . فلما تولى عمر الخلافة دفع فذكاً إلى ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبقيت على آل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن تولى الخلافة عثمان بن عفان ، فأقطعها مروان بن الحكم على ما قيل . ثم يهمل التاريخ أمر فذك بعد عثمان ، فلا يصرح عنها بشيء ، ولكن الشيء الثابت هو أن أمير المؤمنين علياً انتزعها من مروان على تقدير كونها عنده في خلافة عثمان بن عفان .

وقيل إنه لما ولي معاوية بن أبي سفيان نفسه الخلافة أعمن في السخرية ، وأكثر من الاستخفاف بالحق المهضوم ، فأقطع مروان بن الحكم ثلث فذك ، وعمر بن عثمان ثلثها ، ويزيد ابنه ثلثها الآخر ، فلم يزلوا يتداولونها

- ويقول الحموي عنها : « وفيها عين فؤارة وبخيل كثيرة »

ويقدر أن أبي الحديد بعض بحيل الكوفة في القرن السادس الهجري وحدد الإمام موسى بن جعفر فذكاً ، فقال : الحد الأول لمدك عدن . والحد الثاني سمرقند والحد الثالث إفريقية ، والحد الرابع سيف البحر مما يلي الحرر وأرمينيا

حتى خلصت كلها لمروان بن الحكم أيام ملكه ، ثم صفت لعمر بن عبد العزيز بن مروان ، فلما تولى عمر الأمر ردّ فدكاً على ولد فاطمة عليها السلام ، وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك ، فكتب إليه أن فاطمة عليها السلام قد ولدت في آل عثمان وآل فلان وفلان ، فعلى من أردّ منهم ؟ فكتب إليه : أما بعد ، فإنّ لو كتبت إليك آمرك أن تدبح بقرة لسألتني ما لونها ؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة من على عليه السلام . فقمت بو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز ، وعاتبوه فيه ، وقالوا له : « هجنت فعل الشيخين » . وقيل إنه خرج إليه عمرو بن قيس في جماعة من أهل الكوفة ، فلما عاتبوه على فعله قال لهم : إنكم جهلتم وعلمت ، ونسيتم وذكرت أنّ أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم حدثني عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة مني يسخطها ما يسخطني ، ويرضيها ما أرضاها » . وإنّ فدكاً كانت صافية على عهد أبي بكر وعمر ، ثم صار أمرها إلى مروان فوهبها لعبد العزيز أبي ، فورثها أنا وإخوتي عنه ، فسألهم أنّ يبيعوني حصتهم منها ، فمن باع وواهب حتى استجمعت ، فرأيت أنّ أردّها على ولد فاطمة . فقالوا له : فإنّ أبيت إلا هذا فأمسك الأصل واقسم الغلة ، ففعل .

ثم انتزعها يزيد بن عبد الملك من أولاد فاطمة ، فصارت في بني مروان حتى انقرضت دولتهم ، فلما قام أبو العباس السفّاح بالأمر ، وتقلد الخلافة ، ردّها على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ثم قبضها أبو جعفر المنصور في خلافته من بني الحسن ، وردّها المهدي بن المنصور

على العاطميين ، ثم قبضها موسى بن المهدي من أيديهم .
ولم تزل في أيدي العباسيين حتى تولى المأمون الخلافة ، فردّها على
لعاطميين سنة ٢١٠ ، وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة .
أما بعد فإن أمير المؤمنين - بمكانه من دين الله ، وخلافة رسوله صلى الله
عليه وسلم ، والقراءة به - أولى من استنّ بسنّته ، وسلم لمن منحه منحة ،
وتصدق عليه بصدقة محتة وصدقته ، وبالله توفيق أمير المؤمنين وعصمته .
وإليه في العمل بما يقربه إليه رغبته . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
أعطى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فداك ، وتصدق بها عليها ،
وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله صلى الله عليه وسلم
وسلم ، ولم تدع منه ما هو أولى به من صدق عليه ، فرأى أمير المؤمنين أن
يردها إلى ورثتها ، ويسلمها إليهم ، تقرّباً إلى الله تعالى بإقامة حقه وعده ،
وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أمره وصدقته ، فأمر بإثبات ذلك
في دواوينه ، والكتاب إلى عماله ، ففش كان ينادى في كل موسم بعد أن
قبض نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة
أو عدة بذلك فيقبل قوله وتنفذ عدته ، إن فاطمة رضي الله عنها لأمل بأن
يصدق قولها فيما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم له . وقد كتب أمير المؤمنين
إلى المبارك الأنطري مؤيد أمير المؤمنين بأمره برد فداك على ورثة فاطمة بنت
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحدودها ، وجميع حقوقها المسبوبة إليها ،
وما فيها من الرقيق والعتلات وغير ذلك ، وتسليمها إلى محمد بن يحيى بن
الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن
سيد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لتولية

أمير المؤمنين إياهما القيام بها لأهدها ، فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ، وما ألهمه الله من طاعته ، ووقفه له من التقرب إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأعلمه من قبلك ، وعامل محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل به المبارك الطبرى ، وأعنيهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور علائها إن شاء الله والسلام .

ولما بوع المتوكل على الله انتزعها من الفاطميين ، وأقطعها عبد الله بن عمر البازيار وكان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة ، فوجه عبد الله بن عمر البازيار رجلا يقال له بشران بن ألى أمية الثقفى إلى المدينة ، فصرم تلك النخيل ، ثم عاد تعلقح .
وبتتلى آخر عهد الفاطميين بفدك لخلافة المتوكل وسحه إياها عبد الله ابن عمر البازيار .

هذا هو المختصر التاريخى لفدك ، وقد كان حلها يختلف باختلاف سياسة الدولة ، ويرتبط باتجاه الخليفة العام نحو أهل البيت مباشرة ، فهو إذا استقام اتجاهه واعتدل رأيه رد فدك على الفاطميين ، وإذا لم يكن كذلك وقع انتزاع فدك فى أول القائمة من أعمال الخليفة .

ويدلنا على مدى ما بلغته فدك من القيمة المعنوية فى النظر الإسلامى قصيدة دعبل الخزاعى التى أنشأها حينما رد المأمون فدكا ، ومطلعها :
أصبح وجه الزمان قد ضحكا
برد مأمون هاشم فدكا
وروى محمد بن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من خير ، قذف الله تعالى الرعب فى قلوب أهل فدك ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصالحوه على النصف من فدك ، فكانت نصف فدك

لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة له ، لأنه لم يوجف عليها بحيل ولا ركاب ، وأبقاهم فيها ، فكان صلى الله عليه وسلم يزارعهم ويساقبهم على النصف . فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبت السيدة فاطمة رضي الله عنها ميراثها من أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فروى أبو بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها » .

وقيل إن السيدة فاطمة احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه هو زكريا : (يَرْبُّنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) وقوله تعالى : (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) ، وأن أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله أنت عين الحجة ، ومطلق الرسالة ، لا يد لي بجوابك ولا أوقفك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بنى وبينك ، هو الذي أخبرني بما تفقدت ، وأنبأني بما أخذت وتركت » .

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة أن أبا بكر قال : « يا ابنة رسول الله ، والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهماً ، وأنه قال : إن الأنبياء لا يورثون ، فقالت : إن فداكاً وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء علي بن أبي طالب فشهد ، وجاءت أم أيمن فشهدت أيضاً ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها ، فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق علي ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أن مالك لأبيك كان رسول الله

يأخذ من فذك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت أصنع بها كما كان يصنع بها أبي . قال : فلك على أن أصنع كما كان يصنع أبوك . قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد ، وكان أبو بكر يأخذ غلتها ، فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ، ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان علي كذلك .

وطلبت فاطمة رضي الله عنها نحلها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت إنه نحلها فذكاً ، فطلب منها البيعة ، فشهد لها على وأم أيمن رضي الله عنهم . فقال أبو بكر رضي الله عنه : قد علمت يا بنت رسول الله ، أنه لا تجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين .

وفي فتوح البلدان بسنده عن أم هانئ ، أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتت أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، فقالت : ومن يرثك إذا مت ؟ قال : ولدي وأهلي ، قالت : فما بالك ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم دوننا ؟ فقال : يا بنت رسول الله ، والله ما ورثت أباك ذهاباً ولا فضة ولا كذا ولا كذا . فقالت : سهمنا بخير وصدقتنا فذك ، فقال : يا بنت رسول الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما هي طعمة أطعمنيها الله عز وجل حياتي ، فإذا مت فهي بين المسلمين » .

ويرى ابن أبي الحديد : أن النزاع بين فاطمة والصديق لم يكن الميراث والنحلة ، لكن هناك أمر ثالث منعها أبو بكر إياه ، وهو سهم ذوى القربى . وقيل إن السيدة الزهراء أته فقالت : « قد علمت ما أفاء الله علينا من المغام في القرآن من سهم ذوى القربى » ثم قرأت آية الخمس : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا

عَنْهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيَّ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ
الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فقال لها أبو بكر : بأبي أنت وأمي
والوالد ولدك السمع والطاعة لكتاب الله ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم
وحق قرابته ، وأنا أقرأ من كتاب الله تعالى الذي تقرئين منه ، ولم يبلغ علمي
منه أن هذا السهم من الخمس مسلم إليكم كاملاً ، قالت : أفلك هو
ولأقربائك ؟ قال : لا ، بل أنفق عليكم منه وأصرف الباقي في مصالح
المسلمين ، قالت : ليس هذا حكم الله تعالى .

ولم تدعن فاطمة رضي الله عنها لرواية أبي بكر رضي الله عنه ، وبقيت
مصرة في طلب الميراث والنحلة . روى البخاري في صحيحه عن عائشة
رضي الله عنها أن فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
سألت أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم
أن يقسم لها ميراثها ، ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله تعالى
عليه ، فقال لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ما تركناه
صدقة » ، فغضبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهجرت
أبا بكر إلى أن توفيت .

ويروى ابن سعد في الطبقات الرواية نفسها ، وكذلك روى زيد بن
علي زين العابدين عن آبائه رضي الله عنهم قالوا : لما بلغ فاطمة رضي الله
عنها إجماع أبي بكر على منعها فداً وانصراف عاملها منها ، أقبلت في لمة
من حلفتها ونساء قومها تطأ أذيالها ، ودخلت على أبي بكر رضي الله عنه ،
وقد حفل حوله المهاجرون والأنصار ، فنيطت دونها ملاة ، فأنت أنه

أجهش لها القوم بالبكاء ، ثم أمهلت حتى هدأت فورثهم ، وسكنت روعتهم ، ثم افتتحت الكلام ، فحمدت الله وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقالت كلاماً طويلاً أشرنا إليه فيما سبق . وعند ما انتهت من كلامها ، قام أبو بكر رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، ثم قال : « يا خيرة النساء ، وابنة خير الآباء ، والله ما عدوت رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما عملت إلا بأمره ، وإن الرائد لا يكذب أهله ، وقد قلت فأبلغت ، وأغلظت فأهجرت ، فغفر الله لنا ولك . أما بعد ، فقد دفعت آلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودابته وحذاءه إلى على رضى الله عنه ، وأما ما سوى ذلك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ذهاباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً ، ولكننا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنة » ، فقد عملت بما أمرني ، ونصحت له ، وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

نستطيع أن نلخص معارضة السيدة الزهراء رضى الله عنها في عدة مظاهر :

أولاً : إرسالها لرسول ينازع أبا بكر في مسائل الميراث ، ويطالب بحقوقها ، وهذه هي الخطوة الأولى التي انتهجتها الزهراء صلوات الله عليها تمهيداً لما شرته العمل بنفسها .

ثانياً : مواجهتها الخليفة بنفسها في اجتماع خاص ، وقد أرادت بتلك المقابلة أن تشتد في طلب حقوقها من الخمس وفدك وغيرها .

ثالثاً : خطبتها في المسجد بعد عشرة أيام من وفاة النبي صلى الله عليه وآله كما في شرح النهج لابن أبي الحديد .

رابعاً : حديثها مع أبي بكر وعمر حينما زارها بقصد الاعتذار لها .
وإعلانها غضبها عليهما ، وأنها أغضبا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بذلك
(كما جاء في الإمامة والسياسة وأعلام النساء) .

خامساً : خطابها الذي ألقته على نساء المهاجرين والأنصار حين
اجتماعهن عندها .

سادساً : وصيتها بألا يحضر تجهيزها ودفنها أحد .

وبعد ذلك أنحفت الحركة الفاطمية أم نجحت ؟ يسارع العلامة
السيد محمد باقر الصدر فيقول إنها أنحفت بمعنى ، ونجحت بمعنى آخر .
أنحفت لأنها لم تطوح بحكومة الخليفة رضى الله عنه في زحمة الأخير
الخطير الذي قامت به في اليوم العاشر من وفاة الرسول صلى الله عليه
وسلم . ولا نستطيع أن نتبين الأمور التي جعلت الزهراء تحسر المعركة ، غير
أن الأمر الذي لا ريب فيه أن شخصية الخليفة من أهم الأسباب التي أدت
إلى إخفاقها ، لأنه من أصحاب المواهب السياسية ، وقد عالج الموقف بلباقة
ملحوظة نجد لها مثلاً فيما أجاب به الزهراء من كلام ، وجهه إلى الأنصار من
خطاب بعد انتهائها من خطبتها في المسجد ؛ فبينما هو يدوب رقة في جوابه
للزهراء إذا به يطوى نفسه على نار متأججة تندلع بعد خروج فاطمة من
المسجد في أكبر الظن .

ونجحت معارضة الزهراء لأنها جهرت بالحق بقوة قاهرة ، وأضافت
إلى طاقته على الخلود في ميدان النضال المذهبي طاقة جديدة ، وقد سجلت
هذا النجاح في حركتها كلها ، وفي محاورتها مع الصديق والفاروق عند
زيارتها لها بصورة خاصة ، إذ قالت لهما : « رأيكما إن حدثكما حديثٌ

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتفعلان به ؟ فقالا : نعم - فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: رضا فاطمة من رضى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة فقد أحببني ومن أَرْضَى فاطمة فقد أَرْضَانِي ، ومن أَسَخَطَ فاطمة فقد أَسَخَطَنِي ؟ قالَا : نعم ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : فإني أشهد الله وبلائتكنه أنكما أَسَخَطْتَانِي وما أَرْضَيْتَانِي ، ولئن لقيت النبي صلى الله عليه وسلم لأشكونكما عنده » .

هذه فكرة السيدة الزهراء رضى الله عنها ، وهذه وجهة نظرها ، فهي كانت تعتقد أن النتيجة التي حصلت عليها هي الفوز المؤكد في حساب العقيدة والدين ، يقول لله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا زَوْجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا . إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى) .

والفتت فاطمة رضى الله عنها إلى أهل المسجد ، فقالت للمهاجرين والأنصار كلمة بليغة .

ووجهت وجهها شطر قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقالت :

قد كان بعدك أبناء وهنئة ولو كنت شاهدا لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وإبلها واجئت أهلك مذغيت واغصوا
أبدت رجال لنا فحوى صدورهم لما نأيت وحالت بيننا الكتب

تهجمتا ليال واستخف بنا دهر فقد أدركوا منا الذى طلبوا
 قد كنت للخلق نوراً يستضاء به عليك تنزل من ذى العزة الكتب
 وكان جبريل بالآيات يؤنسنا فغاب عنا فكل الخير محتجب
 وقال أبو بكر رضى الله عنه : صدقت يا بنت رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، لقد كان أبوك بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، وعلى الكافرين عذاباً أليماً ،
 وكان والله إذا نسبناه وجدناه أباك دون النساء ، وأخا بن عمك دون الرجال ،
 آثره على كل حميم ، وساعده على الأمر العظيم ، وأتم عترة نبي الله الطيبون ،
 وخيرته المتجبون ، على طريق الجنة أدلتنا وأبواب الخير لسالكتنا ، فأما
 ما سألت فلك ما جعله أبوك ، وأنا مصدق قولك لا أعظم حقك ، وأما
 ما ذكرت من الميراث فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نحن معاشر
 الأنبياء لا نورث » .

ولم تأت المناقشة بين الزهراء والصدیق بنتيجة ، وكفت السيدة فاطمة
 عن طلبها عزوفة ، ولم تشد السيدة الزهراء فى طلبها إلا لاعتقادها بأنها على
 حق ، وما كانت لتضمر لأبي بكر إلا الخير ، وإن اختلفت معه فى وجهة
 نظرها ، وقد هدأت ثائرتها ، وقد ثبت فى نفوس ذريتها ألا يكون فى نفس
 واحد منهم بالنسبة لأبي بكر شيء ، وأخذت السيدة فاطمة رضى الله عنها
 على نفسها ألا تكلم أباً بكر رضى الله عنه فى ذلك المال أو تطلب ما طلبته ،
 وتركت لقاءه فى مدتها القصيرة التى اشتعلت فيها بحزنها ، ثم بمرضاها .

وبعد ثمانين عاماً ، وبعيداً عن الخصومة نستمع ما قاله عمر بن
 عبد العزيز لما ولى الخلافة ، فقد قال : « إن فداك كانت مما أفاء الله على
 رسوله ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فسألته إياها فاطمة رضى

الله عنها ، فقال ما كان لك أن تسألني ، وما كان لي أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل . ثم ولّى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم ، فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ولّى معاوية ، فأقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد وسليمان ، فلما ولّى الوليد سأله حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب إلى منها ، فاشهدوا أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه . كما سبق وبينت ذلك بالتفصيل .

ثم ردها على ولد على من فاطمة رضى الله عنهم .
ويقول أستاذنا الشيخ أحمد فهمى : إنه كان لأبي بكر رضى الله عنه شبهة فى منع السيدة فاطمة رضى الله عنها « فدكاً » ، فلم يكن بالذى يفتات عليها ، أو يظلمها حقها ، أو يتهمها فى نحلها ، إذ أن حديث أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، كان يتمثله ويتذكره ، فلا يرضى أن يحيد عنه . . .

وقد قابلها - وهو يعرف أنها حزينة لفقد أبيها صلى الله عليه وسلم وقد استشعرت نشوة الضعف وقلة الناصر - مقابلة رقيقة كريمة براها واجبة عليه لبضعة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكانت رضى الله عنها كلما ازدادت عليه شدة ازداد لها لياً ورقة ، فإنها لما قالت له : والله لا أكلمك أبداً ، قال : والله لا أهجرك أبداً .

وقيل إنها لما قالت له : والله لأدعون الله عليك ، أجابها بقوله : والله لأدعون الله لك .

فقد تحمل منها هذه الشدة في دار الخلافة ، وبحضرة قريش والصحابة
 رضى الله عنهم ، مع حاجة الخلافة إلى التنزيه ، وما يجب لها من الرفعة
 والهيبة ، لكن ذلك لم يمنعه أن قال معتذراً متقرباً كلام المعظم حقها ،
 المكبر مقامها ، الصائن وجهها : ما أحد أعز على منك فقراً ، ولا أحد
 أحب إلى منك غنى ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، وما تركناه فهو صدقة . بأى أنت وأمى ،
 وبأى أبوك وأمى ونفسى إن كنت سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم
 شيئاً ، أو أمرك بشيء ، لم أتبع غير ما تقولين ، وأعطيتك ما تبتغين ، وإلا
 فإني أتبع ما أمرت به ، وكل أولئك آيات على براءة أئى بكر رضى الله عنه ،
 وإنه ليظهر فى أجوبته لها ، والتحدث إليها الإكبار والإجلال . كيف
 لا ؟ ! وهى حبيبة أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال لها : يا فاطمة ،
 إن الله عز وجل يغضب لغضبك ، ويرضى لرضاك . ولم تلبث رضى الله عنها
 أن قالت له : أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم ، ما أنا بسائلتك
 بعد مجلسى هذا .

وأخيراً فتم الحكمة القائلة بأن الزهراء أجّل من أن تطلب ما ليس لها
 بحق ، وأن الصديق أجّل من أن يسبها حقها الذى تقوم البينة عليه .

مرضها :

كانت السيدة فاطمة نحيلة ، وقد رآها النبي صلى الله عليه وسلم فى
 مرض وفاته فقال لها : إنها أسرع أهلها لحوقاً به ، فلم يمض أكثر من خمسة
 وسبعين يوماً حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة .

وقد اختلف في مدة بقائها بعد أبيها صلى الله عليه وسلم ، فقيل : أربعون يوماً ، ويمكن كونه اشتهاً بمدة مرضها ، وقيل : خمسة وأربعون يوماً ، وقيل : شهران (رواه الحاكم في المستدرک بسنده عن عائشة) ، وفي الاستيعاب عن ابن عبد البر سبعون يوماً ، وقيل : ثلاثة أشهر ، وهو الذى اعتمده أبو الفرج الأصفهاني وقيل : إن مرضها استمر أربعين يوماً ، وقيل : خمسة وتسعون يوماً .

وكانت السيدة الزهراء رضى الله عنها تشكو حيناً بعد حين ، ويعودها النبي صلى الله عليه وسلم يواسيها في مرضها ، ويواسيها كذلك في حاجتها . وزارها يوماً وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدنيك يا بنية ؟ » فقالت : « إني لوجعة » ، ثم قالت : « وإنه ليزيدني أنى ما لى طعام آكله » ، فقال لها عليه السلام : « يا بنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟ » وزارها يوماً وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الإبل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعم الآخرة » .

ومنذ أن فجعت بوفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفوجئت بمنع أبي بكر رضى الله عنه إياها حقها في فدك ، تأثرت تأثراً عظيماً ، فأصبحت شاكية ، وكانت لا ترى إلا وهى معصبة الرأس ، ولما اشتد عليها المرض اجتمعت إليها نساء المهاجرين والأنصار ليعدنها ، فسلمن عليها ، وقلن لها : كيف أصبحت من علتك يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فحمدت الله تعالى ، وصلت على أبيها ، وقالت : « أصبحت والله عاقفة لدنياكن ، قالية لرجالكن ، لفظتهم بعد أن عجمتهم ، وشأنهم بعد أن سبّرتهم ، فتبحاً لقلول الحسد ، واللعب بعد الجد ، وقرع الصفاة ،

وصدع الفناة ، وخطل الآراء ، وزلل الأهواء ، لبسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون ، لا جرم والله لقد قلدهم ربقتها ، وحملتهم أوبقتها ، وشت عليهم غارتها ، فجعداً وعقراً ونُعْداً للقوم الظالمين ، ويحهم أني زعزعوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النوء والدلالة ، ومهبط الروح الأمين والعالمين بأمر الدنيا والدين ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، وما الذي تقوموا من أبي الحسن ؟ تقوموا منه والله تكبر سيفه ، وقلة مبالاته بحتمه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمره في ذات الله عز وجل .

وتالله لو مالوا عن المحجة اللاتحة ، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة ، لردهم إليها وحملهم عليها ، وتالله لو تكافوا عن زمام نبذه إله رسول الله صلى الله عليه وسلم لمار بهم سيراً محجاً ، لا يكلم خشاشه ، ولا يكل سائرته ، ولا يميل راكبه . ولأوردهم منها نيراً صافياً ، رويّاً فضفاضاً ، تطفح ضفته ، ولا يترق جانباه ، ولأصدرهم بطاناً ، ونصح لهم سرّاً وإعلناً ، ولم يكن يتجلى من الغنى بطائل ، ولا يحظى من الدنيا بنائل ، غير رى الدهل ، وشبعة الكاهل ، ولبان لهم الزاهد من الراغب ، والصادق من الكاذب :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ، (وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَبَأٌ مِّنْهُم مَّا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) ، ألا هلم فاستمع ، وما عشت أراك الدهر عجياً ، وإن تعجب فعجب قولم ! ليت شعري ! إلى أي لجأ لجأوا ، وإلى أي مناد استندوا ، وعلى أي عماد اعتمدوا ، وبأي عروة تمسكوا ، وعلى أي ذرية قدموا واحتنكوا ، لبس المولى ، ولبس العشير ، ولبس للظالمين بدلا . استبدلوا والله الذنابي بالقوادم ، والعجز بالكاهل ،

فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) ويحهم ! (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ... إلخ .

منامها قبل وفاتها :

عن أبي عبد الله جعفر الصادق رضى الله عنه ، قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترك إلا الثقلين : كتاب الله عز وجل ، وعترته أهل بيته . وكان قد أسر إلى فاطمة رضى الله عنها أنها لاحقة به ، وأنها أول أهل بيته لحوقاً به ، فقالت رضى الله عنها : « بينا أنا نائمة بعد وفاة أبي بأيام إذ رأيت كأن أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشرف على ، فلما رأيته لم أملك نفسى أن ناديت : يا أبتاه ، انقطع عنا خبر السماء . فبينما أنا كذلك إذ أتتني الملائكة صفوفاً يقدمها ملكان حتى أخذاني فصعداني إلى السماء ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بقصور مشيدة ، وبساتين وأنهار ، تطرد قصرًا بعد قصر ، وبساتيناً بعد بستان ، وإذا قد طلع على من تلك القصور جوار كأنهن الدمي مستبشرات يضحكن إلى ، ويقلن : مرحباً بمن خلقت لها الجنة ، وخلقنا نحن من أجل أبيها . ولم تزل الملائكة تصعدني حتى أدخلوني إلى دار فيها قصور ، وفي كل قصر بيوت فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وفيها من السندس والإستبرق ، وعلى الأسرة الكثير منها ، وعليها الألحفة من الحرير والديباج بألوان شتى ، ومن أواني الذهب والفضة ما يأخذ بالأبصار ، وعليها ألوان الطعام ، وفي تلك الجنان نهر أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى مذاقاً من العسل ، وأطيب

رائحة من المسك . فقلت : لمن هذه الدار ؟ وما هذه الأنهار ؟

فقالوا : هذه الدار هي الفردوس الأعلى الذي ليس بعده جنة ، وهي دار أبيك ومن معه من النبيين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن أحب الله عز وجل من الشهداء والصديقين ، وهذا هو نهر الكوثر الذي وعد الله تعالى أبابك صلى الله عليه وسلم أن يعطيه إياه . قلت : فأين أبي ؟ قالوا : الساعة يدخل عليك . فبينما أنا كذلك إذ برزت لي قصور أشد بياضاً من تلك القصور ، وفروش هي أحسن من تلك الفرش ، وإذا أنا بفروش مرتفعة على أسرة ، وإذا أبي جالس على تلك الفرش ومعه جماعة ، فأخذني وضممني وقبل ما بين عيني ، وقال : مرحباً بابنتي ، وأقعدني في حجره ، ثم قال : يا حبيبتي ، أما ترين ما أعد الله لك ، وما تقدمين عليه ؟ وأراي قصوراً مشرفات فيها ألوان الطرائف والحلى والحلل ، وقال : هذا مسكنك ومسكن زوجك وولديك ومن أحببك وأحبهم ، فطبي نفساً ، فإنك قادمة علي بعد أيام . قلت : فطار قلبي ، واشتد شوقي ، فانتبهت مرعوبة .

وفي ليلة ^(١) الثلاثاء ٣ من رمضان سنة إحدى عشرة توفيت السيدة الزهراء ، وهي بنت ثمان وعشرين سنة . وقيل وفاتها كانت فرحة مسرورة لعلمها بالحق بأبيها الذي بشرها أنها تكون أول أهل بيته لحقاً به ، وعمدت

(١) وفي رواية عن الصادق توفيت في الثالث من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وروى أنها توفيت لعشر بقين من جمادى الآخرة ، وقيل لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر ليلة الأحد .

وعن أبي عباس : في الحادي والعشرين من رجب . أما الأرجح فهو ما قاله المدائني والواقدي وابن عبد البر في الاستيعاب إنها توفيت ليلة الثلاثاء ٣ من رمضان ، وكذلك روى الحاكم في المستدرک .

لولديها ففعلت لهما ، وأمرتهما بالخروج لزيارة قبر جدهما ، فخرجا وهم يفكران في الأمر هل أنهكت أمهما العلة ، وأضر الداء بها حتى لا تستطيع أن تمضي إلى بيت الأحزان الذي ألفته ، أو أنها تريد أن تبكى في هذا اليوم في ثوبها ؟ وكيف البكاء وشيوخ المدينة قد منعوها من البكاء ؟ وغرقا في بحر من الهموم وتيار الهواجس .

والتفتت إلى أسماء بنت عميس ، وكانت تتولى خدمتها وتمرضها ، فقالت لها : يا أمه .

- نعم يا حبيبة رسول الله .

- اسكبي لي غسلا .

فانبرت وأتتها بما طلبته من الماء ، فاعتسلت فيه ، وهي على أحسن ما تكون . وقالت لها : ايتيني بشيبي الجدد .

فناولتها ثيابها ، وهمت بها ثانية : اجعلي فراشي وسط البيت .

فذهلت المرأة ، وقامت تتعثر بأذيالها ، فصنعت لها ذلك ، فاطبعت على فراشها ، واستقبلت القبلة ، والتفتت إلى أسماء قائلة :

نفسى على زفرتها محبوسة يا ليتها خرجت مع الرفرات لاخير بعدك في الحياة وإنما أبكى مخافة أن تطول حياتي وروى ابن سعد في الطبقات بسنده عن أبي رافع عن أسماء ، وفي الإصابة أخرجه ابن سعد وأحمد بن حنبل من حديث أم رافع قالت : مرضت فاطمة ، فلما كان اليوم الذي توفيت فيه خرج عليّ ، فقالت لي : يا أمه ، اسكبي لي غسلا ، فسكبت لها ، فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم قالت : ايتيني بشيبي الجدد ، فأتيته بها فلبستها ، ثم قالت : اجعلي فراشي وسط

البيت فجعلته ، فاضطجعت عليه ، واستقبلت القبلة ، ثم قالت لى :
يا أمه ، إني مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت ، فلا يكشف لى أحد كتفاً .

وفى رواية أن أعراياً جاء من الشام ، وابن عباس كان فى المسجد
الحرام يفتى الناس ، فسأله عن أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبناته ،
فأخبره أن أبناءه كانوا خمسة : القاسم والطاهر والمنظهر والطيب ، وهم من
خديجة رضى الله عنها ، وإبراهيم من مارية . وبناته كن أربعاً : زينب ورقية
وأم كلثوم وفاطمة ، وكن أيضاً من خديجة ، وكلهم مات فى حياته صلوات
الله عليه إلا فاطمة فإنها بصيت أربعين يوماً من بعده .

ولما جاء أحل فاطمة لم تحم ولم تصدع ، ولكن أخذت يدي الحسن
والحسين فذهبت بهما إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجلستهما عنده ،
ثم وقفت ، فصلت بين المبر والقبر ركعتين ، ثم ضمتهما إلى صدرها
والترمتهما .

وقالت : يا ولدى ، اجلسا عند أبيكما ساعة ، والإمام على عليه السلام
يصلى فى المسجد . ثم رجعت نحو المنزل ، فحملت ما فضل من حنوط
النبي صلى الله عليه وسلم فاغتسلت به ، وليست فضل كفه ، ثم نادى :
يا أسماء !

فقال لها : ليك يا بنت رسول الله .

فقال : تعاهدي ، فإنى أدخل هذا البيت . فأضع جنبي ساعة ،
فإذا مضت ساعة ولم أخرج ، فناديني ثلاثاً ، فإن أجبتك ، وإلا فاعلمى
أنى لحقت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قامت مقام الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيتها ، فصلت ركعتين ،

ثم جللت وجهها بطرف رداثها ، وقضت نحبا ، وقيل بل ماتت في سجدتها .

فلما مضت ساعة أقبلت أسماء فنادت : يا فاطمة الزهراء ، يا أم الحسن والحسين ، يا بنت رسول الله ، يا سيدة نساء العالمين ! !

فلم تحب ، فدخلت فإذا هي ميتة .

فقال الأعرابي . كيف علمت وقت وفاتها يا ابن عباس ؟
قال : أعلمها أبوها .

ثم شقت أسماء جيبها ، وقالت : كيف أجزي فأخبر اني رسول الله بوفاتك ؟ ثم خرجت ، فلتقاها الحسن والحسين فقالا : أين أمنا ؟ فسكت ، فدخل البيت فإذا هي ممتدة ، فحركها الحسين ، فإذا هي ميتة ، فقال : يا أخاه آجرك الله في أمنا .

وصاح أهل المدينة لما علموا بخبر وفاتها ، واجتمعت نساء بني هاشم في دارها فصرخن صرخة واحدة ، كادت المدينة تترزع منها ، وهن يقلن يا سيدته ، يا حبيبته ، يا بنت رسول الله . وأقبل الناس إلى على رضى الله عنه وهو جالس ، والحسن والحسين رضى الله عنهما بين يديه يبكيان ، فبكى لبيكائهما . واجتمع الناس فجلسوا وهم يسترجعون ويتظرون أن يخرج الجنائز فيصلوا عليها ، فخرج أبو ذر الغفاري ، وقال : « انصرفوا ، فإن ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخرجها هذه العشية » . فقام الناس وانصرفوا .

وصيتها :

في كتاب روضة الواعظين أن فاطمة رضى الله عنها لم تزل بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم مهمومة مغمومة ، محزونة مكروبة ، كنيية باكية . فلما نعت إليها نفسها دعت أم أيمن وأسما بنت عميس وعلياً عليه السلام . فقالت : يا ابن عم ، إنه قد نعت إلى نفسي ، وإننى لا أرى ما بي إلا أننى لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة ، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي . فقال على رضى الله عنه أوصينى بما أحببت يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجلس عند رأسها ، وأخرج من كان في البيت . ثم قالت : يا ابن عم ، ما عهدتى كاذبة ولا خائفة ، ولا خالفتك منذ عاشرتنى .

فقال على : معاذ الله ! أنت أعلم بالله تعالى ، وأبر وأتقى وأكرم وأشد خَوْفاً من الله تعالى ، وقد عز على مفارقتك وفقدك ، إلا أنه أمر لا بد منه ، والله لقد جددت على مصيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجل فقدك ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكيا جميعاً ساعة ، وأخذ على رأسها وضمه إلى صدره ، ثم قال : أوصينى بما شئت !

وقد أوصت الزهراء علياً بثلاث وصايا :

١ - أن يتزوج بأمامة بنت أخيها زينب رضى الله عنها ، وهى بنت أبى العاص بن الربيع ، وهى التى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحملها في الصلاة ، فقد ثبت ذكرها في الصحيحين من حديث

أنى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحمل أمانة بنت زينب على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهديت له هدية فيها قلادة من جزع ، فقال لأدفعها إلى أحب أهلى إلى ، فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة ! فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمانة بنت زينب فأعلقها فى عنقها . وأهدى السجاشى إلى النبي صلى الله عليه وسلم حلية فيها خاتم من ذهب فسه حبشى فأعطاه أمانة .

وفى اختيار السيدة الزهراء أمانة قالت : إنها تكون لولدى مثلى فى حوى ورومى ، وفى رواية قالت : إنها بنت أختى ونحو على ولدى .
فلما توفيت الزهراء تزوج أمير المؤمنين أمانة كما أوصته .

٢ - أن يتخذ لها نعشاً وصفته له . وفى رواية أن أسماء بنت عميس قالت لها إبنى حين كنت بأرض الحبشة رأيتهم يصنعون شيئاً ، فإن أعجبك أصنعه لك ، فدعت بسرير فأكبته لوجهه ثم دعت بجرائد فشدها على قوائمه ، وجعلت عليه نعشاً ثم جللته ثوباً . فقالت فاطمة رضى الله عنها : اصنعى لى مثله ، استرئى سترك الله

وفى الاستيعاب بسنده أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لأسماء بنت عميس : إبنى قد استقيحت ما يصنع بالساء . إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها . فقالت أسماء : يا بنت رسول الله ، ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة ؟ فدعت بجرائد رطبة ففتحها ثم طرحت عليها ثوباً ، فقالت فاطمة : ما أحسن هذا وأجمله ! تعرف به المرأة من الرجل ، ثم قال : إن فاطمة : أول من عطى نعشها من النساء فى الإسلام على الصفة

المذكورة ، ثم بعدها زينب بنت جحش رضى الله عنهما . ويروى أن السيدة الزهراء كانت مهتمة كثيراً بأمر وضعها على السرير ، وأنها عندما وصفت لها أسماء النعش ابتسمت بذلك بعد أن لم تر ضاحكة ولا متسمة بعد وفاة أبيها إلى ذلك الحين كما قلنا سابقاً . وروى الحاكم في المستدرک بسنده عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال : مرضت فاطمة مرضاً شديداً ، فقالت لأسماء بنت عميس . ألا ترين إلى ما بلغت ؟ أحمل على السرير ظاهراً ! فقالت أسماء لا ، لعمرى ، ولكن أصنع لك نعشاً كما رأيت يصنع بأرض الحبشة ، قالت : فأريته . فأتت أسماء بحرائد رطبة ، وحملت على السرير نعشاً . وهو أول ما كان النعش ، قالت أسماء : فتبسمت فاطمة ، وما رأيته متسمة بعد أبيها إلا يومئذ .

٣ - ألا يشهد أحد جنازتها ، ممن كانت غاضبة عليهم ، وأن تدفن ليلاً ، كذلك أوصت علياً أن تحنط بفاضل حوط رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأن يعسلها في قميصه ، ولا يكشفه عنها ، وقيل إنها أوصت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لكل واحدة منهن باثنتي عشرة أوقية من الفضة ، ولنساء بني هاشم مثل ذلك ، وأوصت لأمامة بنت أخيها زينب رضى الله عنهن بشيء مما تركته .

وتنفيذاً لوصية السيدة الزهراء دفنت ليلاً بالقيع^(١) ، وصلى عليها

(١) واختلف في موضع دفن ، فقيل دفنت في بيتها . وقيل دفنت في القيع وصوى على حول قبرها قبراً مزوراً حتى لا يعرف أحد موضعه .

ولأى الأمور تدفن سرّاً

بضعة المصطفى ويعني ثراها

وثبت لا يرى له الناس مثوى

أى قدس يضمه مشواها

الإمام رضى الله عنه ، ونزل في قبرها ، ولم يكن معه سوى الصفوة من أصحابه ، تنفيذاً لوصيتها ، ثم وقف على حافة القبر يؤيئها بكلمات تم عن قلب أفعم بالحمسات ، وقال متجهاً إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك ورائتك النارية في جوارك ، والبائنة في الثرى بيقعتك ، والسريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ، إلا أن لي في التأسي بعظم فرتك ، وفادح مصيبتك ، موضع تعز ، فلقد وسدتك في ملحود قبرك . وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت مقم ، وستشك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها ، فأحفظها السؤال ، واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ، ولم يخلق منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سيم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين ٤ .

حزن الإمام على ولاتها :

لما فرغ سيدنا على رضى الله عنه من دفن زوجته العزيزة الزهراء ، رجع إلى البيت ، فاستوحش فيه ، وجزع جزعاً شديداً ، ثم أنشأ يقول :
أرى علل الدنيا على كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذى دون الفراق قليل
وإن افتقادی فاطماً بعد أحمد دليل على ألا يدوم خليل
واستن الإمام سته حميدة ، فكان يزور قبر فاطمة الزهراء كل يوم ،

وذات يوم أقبل على القبر الشريف ، فانكب عليه ، وأخذ يبكي ، وأنشأ يقول :

ما لي مررت على القبور مسلماً قبر الحبيب فلم يرد جوابي
يا قبر مالك لا تحجب منادياً أملت بعدى خلة الأحباب
وقد رأينا أنه - تفيذاً لوصية الزهراء - قد دفنت ليلاً ، ولم يحضر
مع الإمام سوى الصفة المختارة من أصحابه ، ونا علم المسلمون بوفاتها
جاءوا إلى البقيع ، فوجدوا فيه أربعين قبراً ، فأشكل عليهم موضع قبرها من
سائر القبور ، فضج الناس ، ولام بعضهم بعضاً ، وقالوا لم يخلف نبيكم
إلا بنتاً واحدة تموت وتدفن ولم تحضروا وفاتها والصلاة عليها ، ولا تعرفون
قبرها ، ثم قال ولاية الأمر منهم : هاتوا من نساء المسلمين من ينبش هذه
القبور حتى نجد لها ، فنصلى عليها ، ونزور قبرها . فبلغ ذلك الإمام علياً ،
فخرج مغضباً قد احمرت عيناه ، ودرت أوداجه وعليه قباؤه الأصفر الذي
كان يلبسه في كل كربة ، وهو متكئ على سيفه ذي الفقار ، حتى ورد
البقيع ، فسار إلى الدس النذير وقالوا : هذا علي بن أبي طالب قد أقبل
كما ترونه ، يقسم بالله لئن حول من هذه القبور حجر لبضعن السيف على
غابر الآخر ، فلتقاه بعضهم ، فقال له : مالك يا أبا الحسن ، والله
لننبش قبرها ، ولنصلين عليها ، فضرب الإمام بيده إلى جوامع ثوبه ،
فهزه ثم ضرب به الأرض ، وقال : أما حتى فقد تركته مخافة أن يرتد
الناس ، وأما قبر فاطمة فوالله الذي نفس علي بيده لئن رمت وأصحابك
شيئاً من ذلك لأمتقن الأرض من دمائكم ، فإن شئت فأعرض . فلتقاه آخر ،
فقال : يا أبا الحسن ، بحق رسول الله ، وبحق من فوق العرش إلا خليت

عنه ، فإننا غير فاعلين شيئاً تكرهه ، فحلى عنه ، وتفرق الناس ، ولم يعودوا إلى ذلك .

ما أثر عنها من الدعاء :

في منهج الدعوات أثر عن السيدة الزهراء رضى الله عنها : « اللهم قطنى بما رزقتنى ، واسترني ، وعافني أبداً ما أبقيتني واعفر لي وارحمني إذا توفيتني ، اللهم لا تفتني في طلب ما لم تقدر لي ، وما قدرته عليّ فاجعله يسيراً سهلاً ، اللهم كافئ عني ولدي ، وكل من له نعمة عليّ خير مكافأتك ، اللهم فرغني لما خلقتني له ، ولا تشغلي بما تكلفت لي به ، ولا تعديني وأنا أستغفرك ، ولا تحرمني وأنا أسألك ، اللهم ذلل نفسي في نفسي ، وعظم شأنك في نفسي ، وألممني طاعتك ، والعمل بما يرضيك ، والتجنب لما يسخطك ، يا أرحم الراحمين » .

ومنه دعاء علمها إياه النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، صل على محمد وعلى أهل بيته عليه وعليهم السلام ، واقض عني الدين ، وأغنني من الفقر ، ويسر لي كل أمر ، يا أرحم الراحمين » .

وفي الإحياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة ، ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي : يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث ، اللهم

لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله » .

وفي روض الأفكار : جاءت فاطمة رضي الله عنها تطلب شيئاً من النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : « والذي نفسي بيده ، ما اقتبس آل محمد ناراً منذ ثلاثين يوماً ، ألا أعلمك خمس كلمات علمنهن جبريل ، قالت : نعم ، قال قولي : يا أول الأولين ويا آخر الآخرين ، وياذا القوة المتين . ويا أرحم الراحمين ، أغننا واقض حاجتنا » .

وقالت فاطمة رضي الله عنها : رغب النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد ، وذكر فضله ، فسأله الجهاد فقال : « ألا أدلك على شيء يسير وأجره كبير ، ما من مؤمن ولا مؤمنة يسجد عقب الوتر سجدتين ويقول في كل سجدة : سبح قدوس رب الملائكة والروح ، خمس مرات لا يرفع رأسه حتى يغفر الله ذنوبه كلها ، واستجاب الله دعاءه وإن مات في ليلته مات شهيداً » .

وقالت السيدة الزهراء لسلمان : « إن أردت أن تلقى الله عز وجل وهو عليك غير غضبان فواظب على هذا الدعاء وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم الله النور ، باسم الله الذي يقول للشيء كن فيكون ، باسم الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تحفى الصدور ، باسم الله الذي خلق النور من النور ، باسم الله الذي هو بالمرئوف مذكور ، باسم الله الذي أنزل النور على السطور ، بقدر مقدور في كتاب مسطور على نبي محبوب » .

ومن دعاء علمته ولدها الحسن رضي الله عنه : « الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، ولا يخيب من دعاءه ، ولا يقطع رجاء من رجاءه - ثم يسأل الله عز وجل ما يريد » .

غير حفظ الزهراء في قرباها
ومن الوجد ما أطال بكأها
والرواسي تهتز من شكواها
أن تزول الأحقاد بمن حواها
حكمت المصطفى به وحكاها
نحن من روضة الجليل جناها
لو كرهنا وجودها ما براها
سطح الأرض والسماء بناها
حوت الشب ما حوت من سناها
ه فيكم فأكرموا مثواها
يرد المهتدون منه هداها
ه إلينا هدية أهداها
لا يرى غير حزبنا مرآها
حسبهم يوم حشرهم سكناها
عن موارثها أبوها زواها
بأحاديث من لدنه ادعاها
بالموارث ناطقاً فحواها
شامل للعباد في قرباها
نا وتلكم من دوننا أوصاها
واستحقت هي الهدى فهداها
بعد علم لكي نصيب خطاها

لم ير الله للرسالة أجراً
يوم جاءت يا للمصاب إليهم
فدعت واشتكت إلى الله شكوى
فاطمأنت لها القلوب وكادت
تعط القوم في أتم خطاب
أهـ القوم راقبوا الله فينا
نحن من باري السموات سر
بل بآثارنا ولطف رضانا
وبأضوائنا التي ليس تخبو
وأعلموا أننا مشاعر دين الا
ولنا من خزائن الغيب فيض
إن تروموا الجنان فهي من الا
هي دار لنا ونحن ذووها
وكذاك الجحيم سجن عدانا
أيها الناس أي بنت نبي
كيف يزوي عني تراثي زاو
هذه الكتب فاسألوها تروها
وبمعنى يوصيكم الله أمر
كيف لم يوصنا بذلك مولا
هل رأنا لا نستحق اهتداء
أو تراه أضلنا في البرايا

ما لكم قد منعمونا حقوقاً
قد سلمت من الخلافة خوذاً
ولأى الأمور تدفن سرّاً
فعمست وهى أعظم الناس وجداً
وثوت لا يرى لها الناس مثوى
أى قدس يضمه مثواها
أوجب الله فى الكتاب أداها
كان منّا قناعها ورداها
بضعة المصطفى ويعنى ثراها
فى قم الدهر غصة من جواها
ويقول الأستاذ أحمد فهمى محمد :

لذ بالبتول وناد بالزهراء
وارفع لفاطمة اللواء فإنها
حورية إنسية فطرت على
فاقت نساء العالمين وإنها
والله يغضب حين تغضب فاطم
شهد الخلائق أنها لكريمة
وهى الوسيلة للنجاة وعصمة
وطا الشفاعة فى العصاة وجنة
فالله ينفعنا بها وبسلها
واضرع لربك خيفة بدعاء
بنت الرسول سليفة الحنفاء
خلق سما فى الذروة العليا
يوم القيامة تزدهى بسناء
والله يرضى فى مقام رضا
وهى اللبأ لنا من اللأواء
وذخيرة العاني من الضراء
ولنا بها الزلقى ليوم لقاء
حتى نصير بهم مع السعداء

الشعراء والزهرءاء

لعل خير ما أختتم به كتابي هذا عن السيدة الزهراء رضى الله عنها ما ترجمه العلامة الشيخ الصاوى شعلان عن قصيدة للشاعر السيد محمد إقبال شاعر الباكستان فى السيدة الزهراء :

نسب المسيح بنى لمريم سيرة بقيت على طول المدى ذكرها
والمجد بشرق من ثلاث مطالع فى مهد فاطمة فما أعلاها
هى بنت من ، هى زوج من ، هى أم من

من ذا يدانى فى الفخار أباهـا
هى ومضة من نور عين المصطفى
هادى الشعوب إذا تروم هداها
هو رحمة للعالمين وكعبة الـ
آمال فى الدنيا وفى آخرها
من أيقظ الفطر النيام بروحه
وكانه بعد البلى أحيها
مثل العرائس فى جديد حلاها
وأعاد تاريخ الحياة جديدة
تاج يفوق الشمس عند ضحاها
ولزوج فاطمة بسورة هل أنى
ت بصيقل يحو سطور دجاها
سيف غدا يمينه تباها
أسد بحصن الله يرمى المشكلا
ينجيهما فى البيرات سواها
إيوانه كوخ وكثر ثرائه
ثرة الوثام والاتحاد ابنها
أمسى تفرقها يحل عراها
ر إمام ألفتها وحسن علاها
ترك الخلافة ثم أصبح فى الدنيا

وحسين في الأحرار والأبرار ما
فتعلموا رى اليقين من الحسيه
وتعلموا حربه الإيمان من
الأمهات يلدن للشمس الضيا
ماسيرة الأبناء إلا الأمها

□ ° °

يترسم القمر المنير خطها
رقت لتلك النفس في شكواها
يا سحب أين نذاك من جدواها
ومني الكواكب أن تنال ضياها
ورأت رضا الزوج الكريم رضاها

° ° °

فمها يردد آي ربك بينا
بلت وسادتها لآئي دمعها
جبريل نحو العرش يرفع دمعها
لولا وقوفى عند أمر المصطفى
لمضيت للتطواف حول ضريحها

° ° °

ويقول الشيخ ملا كاظم الأزرى في رثاء الزهراء :

تركوا عهد أحمد في أخيه
وأذاقوا البتول ما أشجها
وهي العروة التي ليس ينجو
غير مستعصم بحبل ولاها

المراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - تفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني
- ٣ - تفاسير القرطبي وابن كثير والنسفي والبيضاوي
- ٤ - أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين .
- ٥ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار : الشيخ سيد الشبلنجي .
- ٦ - الشرف المؤبد لآل محمد : يوسف البهائي .
- ٧ - الزهراء : للأستاذ عبد الزهراء عثمان محمد .
- ٨ - فدك في التاريخ : السيد محمد باقر الصدر .
- ٩ - فاطمة الزهراء : فاضل الحسيني الميلاني .
- ١٠ - فاطمة الزهراء : سليمان كناني .
- ١١ - السيدة فاطمة الزهراء : للأستاذ أحمد فهمي محمد .
- ١٢ - السيدة فاطمة الزهراء : الأستاذ عمر أبو النصر .
- ١٣ - خديجة الكبرى : الأستاذ حسن كامل اللطاوي .
- ١٤ - خديجة أم المؤمنين : الأستاذ عبد الحميد الزهراوي .
- ١٥ - ينابيع المودة : الشيخ سليمان الحسيني البلخي .
- ١٦ - بنات النبي عليه الصلاة والسلام : الدكتورة بنت الشاطي .
- ١٧ - الفتنة الكبرى : الدكتور طه حسين .
- ١٨ - فاطمة وبنات محمد : لامنس .

- ١٩- فاطمة الزهراء والفاطميون : الأستاذ عباس محمود العقاد .
- ٢٠- الإجماع في التشريع الإسلامى : السيد محمد صادق الصدر .
- ٢١- طبقات ابن سعد : ابن سعد .
- ٢٢- المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية : السيد محسن الأمين الحسينى العاملى .
- ٢٣- حياة أمير المؤمنين فى عهد النبي للأستاذ محمد صادق الصدر .
- ٢٤- كفاية الطالب لأبي عبد الله محمد بن يوسف الكنجى الشافعى .
- ٢٥- شرح ابن أبى الحديد الجزء الأول .
- ٢٦- سيرة ابن هشام .
- ٢٧- الإصابة فى تمييز الصحابة لشهاب الدين أبى الفضل .
- ٢٨- الرياض النضرة لشيخ الشافعية محب الدين الطبرى .
- ٢٩- النص والاجتهاد للإمام المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين .

فهرس

الصفحة

٧	تقديم
١٥	مقدمة
١٩	أهل البيت
٣٣	السيدة فاطمة الزهراء :
٥٤	أصهار الرسول
٥٧	سيدة النساء
٦١	مولدها
٦٣	نشأتها
٦٥	السيدة فاطمة تشبه الرسول
٦٩	السيدة فاطمة من أهل البيت :
٧٣	حديث الثقلين
٧٦	خصائصها ومناقبها وفضائلها
٨٢	الرسول والسيدة الزهراء
٨٥	الرسول يضرب بفاطمة المثل
٨٦	زوجها
٩٢	السلالة الطاهرة :
٩٩	الزهراء سيدة نساء العالمين :

الصفحة

١٠١	روايتها الحديث
١٠٥	هجرتها
١١١	مشاركة الزهراء في الشؤون العامة
١١٤	أخلاقها
١٣٢	زواج السيدة فاطمة
١٥٩	بلاغتها وفصاحتها
١٦٧	الزهراء وفلسفة الإسلام :
١٦٨	أولاً : الصلاة
١٧٠	ثانياً : الزكاة
١٧١	ثالثاً : الصوم
١٧١	رابعاً : الحج
١٧٢	خامساً : العدل
١٧٣	سادساً : وجوب طاعة أهل البيت
١٧٣	سابعاً : الإمامة
١٧٤	ثامناً : الجهاد
١٧٤	تاسعاً : الصبر
١٧٥	حاشراً : الأمر بالمعروف
١٧٥	حادى عشر : النهى عن المنكر
١٧٦	ثانى عشر : صلة الأرحام
١٧٧	ثالث عشر : الوفاء بالنذر

الصفحة

١٧٧	.	.	رابع عشر : توفية المكايل والموازين
١٧٧	.	.	خامس عشر : الهى عن شرب الخمر
١٧٧	.	.	سادس عشر : اجتناب القذف
١٧٨	.	.	سابع عشر : حرمة الشرك
١٧٨	.	.	ثامن عشر : وبر الوالدين وقاية من السخط
١٧٩	.	.	تاسع عشر : والقصاص حقناً للدماء
١٨٠	.	.	وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .
١٨٥	.	.	السيدة فاطمة والخلافة وميراث الرسول
٢٠٠	.	.	مرضها
٢٠٣	.	.	منامها قبل وفاتها
٢٠٨	.	.	وصيتها
٢١١	.	.	حزن الإمام على وفاتها
٢١٣	.	.	ما أثر عنها من الدعاء
٢١٥	.	.	الشعراء والزهراء
٢١٩	.	.	المراجع

٢٠٠٤/٢٠٥٧٩	رقم الإيداع
ISBN 977-02-6752-X	التزقيم الدولي

١/٢٠٠٤/٦٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)